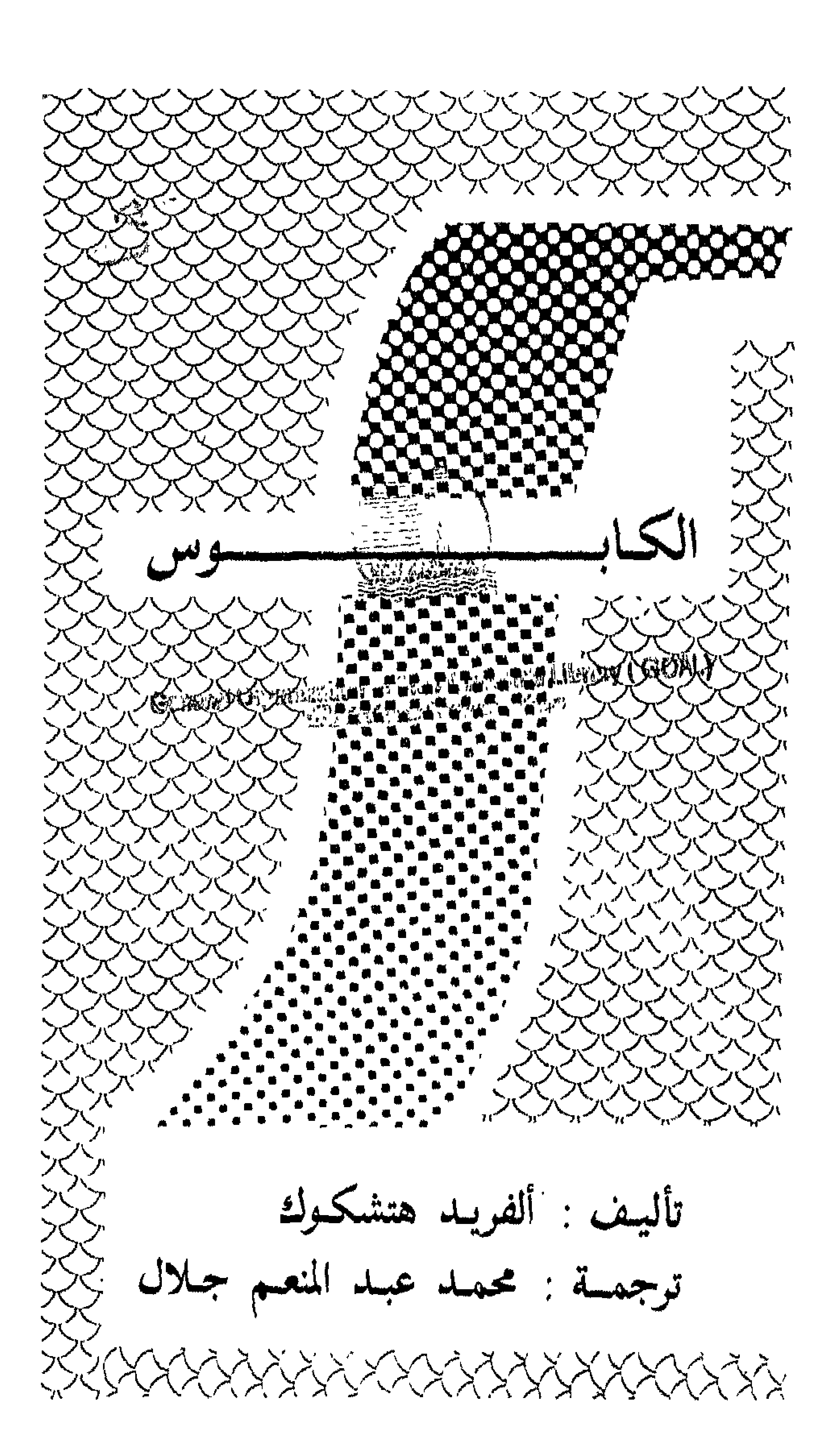
بوالو ونرنسجاك

الكابوس




الكابوس
تأليف : ألفريد هتشكوك
ترجمة : محمد عبد المنعم جلال

القســم الأول

الفصل الأول

قال جيفين : الواقع أنني أريد أن تراقب زوجتي .
ـ يا للشيطان ! .. أهي تخونك ؟
ـ كلا .
ـ اذن ؟
ـ يتعذر على أن أفسر لك .. أن أمرها غريب .. وهي تثير قلقي .
ـ ما الذى تخشاه بالتحديد ؟

تردد جيفين وأخذ ينظر الى فلافيير ، وأحس هذا الأخير بما يعتمل في نفس صاحبه . لم يكن واثقا ، فقد بقي كما هو وكما كان فلافيير يعرفه تماما منذ خمسة عشر عاما ، أيام كان في كلية الحقوق ـ ودودا ، متأهبا للافضاء بمكنون قلبه ، وان كان في نفس الوقت منطويا ، خجولا تعسا .. هتف منذ لحظات وهو يفتح ذراعيه مرحبا بصديقه : « أهذا أنت أيها العزيز روجر؟ .. شد ما أنا مسرور برؤيتك » ولكن فلافيير أحس على الفور وبغريزته بما في هذه الكلمات من خرق تكلف وارتباك ، فقد ظل جيفين كما عهده ، متوتر الأعصاب ، يتفعل لأقل الأسباب ويضحك لأقل الأسباب ، ولم يفلح في محو أثر الأعوام الخمسة عشر التي انقضت وغيرت كل منهما تغييرا طبيعيا محسوسا ، فقد أصاب جيفين الصلع واكتنزت ذقنه واكتسبت حواجبه اللون

الأشقر وظهرت فوق أنفه بقع من النمش . وتغير فلافيير هو الآخر ، فازداد نحافة وتقوس ظهره بعض الشيء منذ أن وقعت له تلك الحادثة . وتوقع أن يسأله صديقه لماذا فضل أن يمارس المحاماة بالرغم من أن دراسته للقانون كانت بهدف الالتحاق بخدمة الشرطة .

وأجابه جيفين : وهو يقدم له علبة فاخرة من الذهب مملوءة بالسيجار الفاخر .

اذا أردت التحديد فأنني لا أخشي شيئا .

وكانت ربطة عنقه هي الأخرى من النوع الثمين ، وتدل ثيابه على الأناقة والثراء وتبرق في أصابعه خواتم من الذهب وهو يتناول عودا من الثقاب من علبة صغيرة تحمل اسم مطعم أرستقراطي كبير .

أرسل جيفين من بين شفتيه خيطا رفيعا من الدخان الأزرق وقال :

ـ هي مسألة جو لا أكثر .

أجل .لقد تغير جيفين تغيرا محسوسا ، فقد بدت عليه مظاهر السلطة والجاه ، ويستطيع الناظر اليه أن يستشف من خلال ذلك مختلف المصالح في الشركات ومجالس الادارت . ومع ذلك قد كانت عيناه دائمتي الحركة . سريعتي التأثر بالخوف والوجل والتستر تحت جفنيه الثقيلتين .

قال فلافيير وهو يضحك ساخرا : مسألة جو !

فقال جيفين في اصرار : أعتقد أنها هي الكلمة المناسبة ، فان زوجتي سعيدة تماما ، وقد تزوجنا منذ أربع سنوات .. تقريبا ، فبعد شهرين يكون قد مر على زواجنا أربع سنوات كامله ، ولدينا

من المال ما يمكنا من أن نعيش في بحبوحة دائمة . ومصنعي في الهافر يدر على ربحا وفيرا منذ اعلان التعبئة العامة . وبسببه لم أدع الى الخدمة العسكرية حتي اليوم . صفوة القول ، أعترف لك بأننا نتمتع في الظروف الحالية بنعم كبيرة .

سأله فلافيير : ـ ألم تنجبا أطفالا ؟

ـ كلا .

ـ استمر .

ـ كنت أقول أن مادلين لديها كل ما يوفر لها أسباب السعادة ، ومع ذلك فهناك شيء غامض لا أستطيع تفسيره ، لقد كانت دائما غريبة الأطوار يتعكر مزاجها لأقل سبب وينتابها الانقباض ما بين فترة وأخرى . ولكن حالتها هذه ازدادت حدة وخطورة منذ بضعة شهور .

ـ هل استشرت طبيبا ؟

ـ طبعا . بل أني لجأت الى أشهر الأطباء فلم يجدوا بها أى علة .

قال فلافيير : هذا من الناحية الجسمانية .. ولكن من الناحية النفسية ؟

ـ لا شيء .. لا شيء على الاطلاق .

قال ذلك وهو يطرقع أصابعه وينفض رماد السيجار الذى تساقط على صدره ويستطرد قائلا :

ـ آه .. أقسم لك أن حالتها غريبة جدا .. خطر لى أنا أيضا في البداية أن هناك فكرة ثابتة تتملكها .. خوفا لا أساس له بسبب الحرب .. كانت تنتابها فترات طويلة من الصمت ، واذا ما خاطبتها فجأة فلا يبدو عليها أنها تسمعك ، وتظل محدقة في

لاشيء .. أن هذا مثير .. يمكنني أن أقسم أنها تنظر الى أشياء خفية لا أراها أنا . وعندما تعود الى حالتها الطبيعية تظل مدة طويلة شاردة ساهمة كما لو كانت تبذل مجهودا كبيرا للتعرف على بيتها وعلى أنا .

ترك جيفين سيجاره يخبو شيئا فشيئا وراح ينظر هو الآخر في الفراغ .. وبدت عليه تلك النظرة الغريبة الساهمة والتي كانت تلازمه فيما سبق .

قال فلافيير وقد نفذ صبره : اذا لم تكن مريضة فلابد أنها تتظاهر بذلك .

رفع جيفين يده الضخمة معترضا وأجاب : خطر لى ذلك .. فراقبتها خلسة .. وفي ذات يوم ذهبت الى الغابة فتبعتها خلسة ورأيتها تجلس أمام البحيرة لا تكاد تتحرك . وقد قضت ساعتين وهى على هذه الصورة ... تحدق في الماء .

ـ ليس هذا بالعمل الخطير .

ـ هو ما تقول .. ولكنها كانت تحدق في الماء باهتمام وبجدية لا أدرى كيف أفسرهما لك .. كان يبدو كأن ذلك أمر بالغ الخطورة والأهمية بالنسبة لها .. وفي المساء أكدت لى أنها لم تبرح البيت فلم أشأ أن أحرجها واذكر لها أنني تعقبتها .

أخذ فلافيير يستعرض الصورة القديمة التي يعرفها عن زميله في الكلية ولكنها كانت لا تلبث أن تغيب عن ذهنه المرة بعد المرة ، ومما أثار غيظه فقال :

ـ اسمع ... لنكن منطقيين .. إما أن زوجتك تخونك وإما أنها مريضة وإما أنها تتظاهر بذلك لسبب لا نعلمه ، وليس هناك غير ذلك أن الأمر لا يمكن أن يعدو أحد هذه الاحتمالات .

مد جيفين يده نحو المنضدة ونفض بحركة من اصبعه حلقة طويلة من الرماد الأبيض ثم ابتسم في حزن وقال :

ـ انلك تفكر تماما مثلما كنت أفعل ولكنني واثق تمام الثقة من أن مادلين لا تخونني ... وقد أكد لى الأستاذ لافارين أنها طبيعية ، ثم لماذا تتصنع ؟ .. وما الذى تهدف اليه ؟ .. فان المرء لا يتصنع بغير سبب ، ولا يقضي ساعتين طويلتين في الغابة للاشيء ... ثم انني لم أذكر لك سوى مثل واحد .

ـ هل تحدثت اليها ؟

ـ نعم . طبعا .. سألتها عن شعورها عندما تستغرق هكذا في الأحلام .

ـ وبماذا ردت عليك ؟

ـ بأنني أزعج نفسي بلا مبرر ، وأنها لم تستغرق في الأحلام وأن الموقف يبسبب لها بعض القلق وأنها تعاني من بعض المتاعب مثلها في ذلك كمثل غيرها من الناس .

ـ ولكن ألم يبد عليها شيء من الملل ؟

ـ بلى .. بدا عليها فضلا عن الانزعاج والارتباك والضيق .

ـ ألم يداخلك شعور بأنها تكذب ؟

ـ كلا . وانما بدا لى أنها خائفة ... سأعترف لك بكل شيء ... قد أبدو لك مضحكا ... هل تذكر ذلك الفيلم الألماني الذى شهدناه في أورسولين حوالى سنة ١٩٢٣ ؟

ـ نعم .

ـ هل تذكر النظرة التي بدت على الممثل عندما فوجيء وهو في حالة من التعبد الصوفي فأخذ يحاول الانكار ... حسنا ... إن وجه مادلين كان كوجه ذلك الممثل الألماني .. تلك النظرة الضائعة

السكرى ... والعينان الحائرتان المترددتان .

ـ لا أحسبك تريد أن تقول أن زوجتك عرضة للتشنجات الروحية ؟

ـ كنت أعلم انك ستقول ذلك .. فهذا هو نفس الاحساس الذى أحسست أنا نفسي به ياصديقي العزيز ... لقد تملكني الحنق أنا أيضا ورفضت الاعتراف بالواقع

ـ هل هى متدينة ؟

ـ كغيرها من الناس ، فهى تذهب الى الكنيسة يوم الأحد .. بحكم العادة لا غير .

ـ هل هى كهانة النسوة اللاتي يتنبأن بالمستقبل ؟

ـ كلا ... أن شيئا غريبا يحدث في كيانها ولكن وكما سبق أن قلت لك ... كما لو كنت تضغط على زرار فلا تلبث أن تراها في مكان آخر .

ـ وهل يقع لها ذلك على الرغم منها ؟

ـ من غير شك . وقد أعتدت على ذلك منها منذ أن بدأت أراقبها ، فهى ما أن تشعر بأن الأزمة آتية حتي تحاول أن تتحرك وأن تتكلم .. فتنهض وتسير أحيانا الى النافذة فتفتحها كما لو كانت في حاجة الى الهواء ، أو تدير الراديو بأعلى صوت . فاذا أنا جاريتها في ذلك الوقت وداعبتها وتحدثت عن أى شيء فان ذهنها يفلح عندئذ في الاستقرار ويعود الى هدوئه السابق .

وأرجو أن تلتمس لى عذرا اذا قلت لك ، أنه ليس من السهل ادراك ما يعتمل في ذهنها في ذلك الوقت ، واذا أنا ، على العكس من ذلك ، تظاهرت بأنني مشغول أو أنني مستغرق في أفكارى فان الهدف يصيب ، فتراها وقد وقفت جامدة لا تتحرك

وتحدق في الفراغ الى نقطة غامضة تتحرك ... أعني انني افترض أنها تتحرك ... ثم تطلق زفرة عميقة وتمر بظهر يدها على جبينها وتمضي خمس دقائق أو عشر وهي على هذه الحال . لا تدرى شيئا عما يدور حولها ، كما لو كانت تسير وهي نائمة .

ـ وهل تبدو حركاتها مقيدة ؟

ـ كلا . على أنني لم يسبق أن رأيت أحدا يسير وهو نائم اذا أردت الحق . ثم أنني لا أشعر أبدا بأنها نائمة . وانما تبدو شاردة . لا تملك زمام أمرها ... كما أنها تصبح لو كانت امرأة أخرى ... اني أعلم أن هذا القول سخيف ولكنني مع ذلك لا أستطيع أن أعبر عما أريد أن أقول بأفضل منه .. أنها تبدو كما لو كانت امرأة أخرى .

وهنا ارتسم في عيني جيفين قلق حقيقي في حين تمتم فلافيير محدثا نفسه : امرأة أخرى ... ان ذلك لا يعني شيئا . ثم قال :

ـ ألا تعتقد أن هناك شيئا خاصا يؤثر عليها ؟

وضع جيفين السيجار على حافة المنضدة وضم يديه الواحدة الى الأخرى في قوة وقال :

ـ الأفضل أن أستمر في حديثي حتي النهاية مادمت قد بدأت . كان في أسرة مادلين امرأة غريبة الأطوار .. كانت تدعى بولين لاجرلاك ... واذا أردت التحديد فهي ام جدة مادلين ... وبهذا ترى أنها قريبة الصلة بها ... ولقد مرضت هذه المرأة وهي في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها .. لا أدرى كيف أفسر لك هذا الأمر ... كانت تنتابها نوبات غريبة ، وكان الذين يعنون بها يسمعون أصواتا مبهمة في غرفتها .

ـ خبطات على الحائط مثلا ؟

ـ نعم .

ـ احتكاكات على الأرض كما لو كان أحد يحرك قطع الأثاث من مكانها ؟

ـ نعم .

قال فلافيير : فهمت . هذه ظواهر تصاحب عادة الفتيات وهن في مثل هذه السن . وليس لها تفسير على كل حال ولكنها تختفي سريعا .

ـ أنني لست خبيرا بمثل هذه الامور . ولكن المؤكد أن بولين لاجرلاك اصابها اختلال عقلي لازمها بعض الوقت ، وقد أرادت أن تنخرط في سلك الرهبنة ولكنها لم تلبث أن عدلت عن ذلك بعد قليل . وأخيرا تزوجت الا أنها انتحرت بعد ذلك ببضع سنوات . وبدون أى سبب .

ـ وكم كان عمرها ؟

أخرج جيفين منديله وجفف به العرق المتصبب من جبينه وأجاب :

ـ خمس وعشرون سنة ... نفس عمر مادلين الآن .

ـ يا للشيطان ؟

لزم الرجلان الصمت . واستغرق فلافيير في التفكير وأخيرا سأل :

ـ لا شك أن زوجتك تعلم ذلك ؟

ـ الواقع أنها لا تعرف شيئا ... أما أنا فقد عرفت كل هذه التفاصيل من أمها ، فقد حدثتني عن بولين لاجرلاك بعد زواجى من ابنتها بقليل ،، ولم أعلق على الأمر أهميةً ما في ذلك الوقت ... آه ... لو كنت أدرى ! أنها ماتت الآن ولا يمكن لأى

مخلوق أن يطلعني على ما أريد .

ـ ألم يخامرك شعور بأنها ذكرت لك هذه الاعترافات مدفوعة بنية خاصة ؟

ـ كلا . لا أعتقد ذلك على كل حال . فقد جاء حديثنا عفوا .ولكني أذكر جيدا أنها أوصتني ألا أعيد هذه القصة على مسامع مادلين ، فانه لم يكن يروق لها أن يعلم أحد أن لها جدة مجنونة ، وكانت تؤثر الا تعرف ابنتها من أمرها شيئا .

ـ هل انتحرت بولين لاجرلاك هذه لسبب معين ؟

ـ ألم يكن يبدو أن هناك سببا يدفعها الى ذلك ، فقد كانت سعيدة ، وكانت قد أنجبت طفلا قبل موتها ببضعة شهور . وكان الجميع يعتقدون أن هذا الطفل سيكون سببا في شفائها مما بها ، ولكنها فجأة في ذات يوم ...

فقاطعه فلافيير قائلا : لا أرى أية صلة لهذا الأمر بزوجتك .

قال جيفين في اعياء : صلة ؟ سوف ترى ... أن مادلين ورثت عن أبويها مجموعة من التحف والجوهرات خلفتها أم جدتها ، وكان من بين هذه الجوهرات عقد من الكهرمان .. إنها لاتني عن النظر الى هذا العقد ولمسه ما بين وقت وآخر .. وبشيء من .. لا أدرى ماذا أقول ... بشيء من الشغف اذا أردت . وفي البيت كذلك صورة لبولين لاجرلاك ، رسمتها بولين بنفسها ، لأنها كانت بارعة في الرسم . ومادلين تقف أمام هذه الصورة تتأملها الساعات الطوال كما لو كانت تأخذ بلبها . وثمة شيء آخر .. انني فاجأتها منذ أيام وقد وضعت هذه الصورة فوق منضدة البهو بجوار مرآة ثم وضعت العقد حول جيدها وراحت تحاول تصفيف شعرها على طريقة بولين في الصورة ... وقد ظلت محتفظة بهذه التسريحة فيما بعد .

واستطرد يقول في شيء من الارتباك الظاهر :

ـ وأنها تجمع شعرها على هيئة حلقة كبيرة في مؤخرة رأسها .

ـ وهل تشبه بولين ؟

ـ ربما ، بعض الشبه .

ـ أسألك للمرة الثانية ، ما الذى تخشاه بالتحديد ؟ تنهد جيفين وتناول سيجاره وراح ينظر اليه في شرود ثم قال :

ـ لا أجرؤ على الاعتراف لك بكل ما يدور في رأسي ، ولكني واثق أن مادلين لم تعد كما كنت أعرفها . بل هناك ما هو أدهى من ذلك ... يخطر لى أحيانا أن المرأة التي تعيش معى ليست مادلين .

نهض فلافيير وضحك على الرغم منه وقال :

ـ ماذا تقول ؟ ... ومن تظنها اذن ؟ ... بولين لاجرلاك ؟ انك تهذى يا عزيزى بول ... ماذا تريد أن أقدم لك ؟ .... ويسكى أم كونياك ؟

ـ بل أعطني كأسا من النبيذ .

وبينما كان فلافيير يمضي الى غرفة الطعام ليعد المشروب صاح به جيفين :

ـ وأنت ؟ ... لقد نسيت أن أسألك ، هل تزوجت أم لا ؟

فأجابه فلافيير : كلا . وليست لى أدني رغبة في الزواج .

سمعت انك تركت العمل في سلك الشرطة .

لم يجب فلافيير وبعد فترة قال :

ـ إذن فأنت تنشد مساعدتي ؟

انتزع جيفين نفسه من مقعده وسار نحو الباب المفتوح وكان فلافيير يحاول أن يرفع سدادة زجاجة النبيذ ، فاعتمد بكتفه على اطار الباب وقال :

ـ ان بيتك جميل .. وانني التمس المعذرة لازعاجى اياك بقصتي هذه ، ولكني مسرور جدا بلقائي بك . كان يجب أن أتصل بك لأخبرك بقدومى ولكني لم أجد الوقت لكثرة أعمالى .

اعتدل فلافيير في وقفته وأفلح في رفع السدادة في هدوء وقال وهو يصب النبيذ في الكأسين :

ـ كنت تحدثني عن شركة إنشاءات بحرية ؟

ـ نعم ـ أننا نصنع في الوقت الحالى هياكل السفن . ولدينا الآن طلبية كبيرة لأن الوزارة تتوقع حدوث أمر جلل .

ـ رباه ! ... يجب أن ننتهى من هذه الحرب ... إن مايو على الأبواب .. نخب صحتك يابول .

ـ وصحتك ياروجر .

وجرعا كأسيهما وكل منهما يحدق في الآخر ... كان جيفين قصيرا ، ربع القوام وكان يقف أمام النافذة . والضوء ينير وجهه الروماني التقاطيع باذنيه المكتنزين وجبينه الذى ينطق بالنبل ومع ذلك فلم يكن يبدو عليه أنه يتمتع بشخصية قوية ، . وعندما تنتهى الحرب فلا شك أنه سوف يخرج منها ثريا من أصحاب الملايين ، وأحس فلافيير أنه كره نفسه لهذا الخاطر ... ألا ينتهز هو نفسه كل الفرص اذا ما واتته ؟ ... أعاد كأسه فوق المنضدة وقال :

ـ إنني أشعر أن هذه القضية ستشغل كل ذهني . أليس لزوجتك أقارب في الجبهة ؟

ـ كلا . إن لها بعض الأقارب ولكنهم بعيدو الصلة بها ولا تراهم مطلقا . حتي ليخيل الى أنه يمكن القول بأنه لا أسرة لها .

ـ وكيف عرفتها ؟

ـ كانت معرفتي بها رومانسية .

كان جيفين يتأمل كأسه ويحاول اختيار كلماته .. دائما هذا الخوف من أن يبدو سخيفا ... ذلك الخوف الذى كان دائما يشل حركته . وأخيرا قال : ـ

التقيت بها في روما في إحدى رحلاتي العملية ، وكنا قد نزلنا في نفس الفندق ؟

ـ أى فندق ؟

ـ الكونتننتال .

ـ وماذا كانت تفعل في روما ؟

ـ كانت تدرس الرسم .. انها ماهرة في الرسم ، كما قالت لى ، لأنني لا أفهم شيئا عنه كما تعلم .

ـ هل كانت تتلقي دروسا لكى تعمل ، ولكى تعطى دروسا بدورها ؟

ـ كيف يخطر لك هذا ؟ ... كانت تتلقي الدروس بدافع التسلية فحسب ، لأنها ليست بحاجة الى العمل إطلاقا . قبل أن تبلغ الثامنة عشرة كانت لديها سيارتها الخاصة ، فقد كان أبوها من كبار رجال الصناعة .

دار جيفين على عقبيه وعاد إلى المكتب ، ولاحظ فلافيير خطواته الرشيقة الثابتة .. كانت فيما سبق مضطربة مهزوزة ولكن ثروة زوجته قد بدلته تبديلا كبيرا .

ـ اما زالت تمارس الرسم ؟

ـ كلا . تخلت عنه تقريبا لانها لا تجد الوقت لذلك ، فالمرأة الباريسية جمة المشاغل .

ـ ولكن ... تلك الاضطرابات التي حدثتني عنها .. لابد أن لها

أسبابا .. ألم يقع في البداية حادث معين؟ .. شجار مثلا ؟ أونبأ سيء ؟ .. إنك بحثت جيدا من ناحيتك ؟

ـ آه طبعا ، ولكني لم أجد شيئا .. أنني اقضي في الهافر بضعة أيام من كل أسبوع ، وأرجو أن تضع هذه الحقيقة نصب عينيك .

ـ هل بدات هذه الاضطرابات وأنت في الهافر؟

ـ كلا . كنت موجودا هنا وان كنت قد عدت من الهافر لتوى ... كان ذلك في يوم من أيام السبت وكانت مادلين مرحة كعادتها . ولكن ما أن حل المساء حتي بدت لى غريبة الأطوار لأول مرة ، لم أعلق أهمية على ذلك في البداية ، فقد كنت أنا نفسي مرهقا .

ـ وقبل ذلك ؟

ـ قبل ذلك ؟ ... كانت تتعرض أحيانا لبعض الأزمات . ولكن ليس بهذا القدر .

ـ هل أنت واثق أنه لم يحدث شيء غير عادى في يوم السبت المذكور ؟

ـ كل الثقة . وذلك لسبب بسيط ، فقد قضينا طوال اليوم معا ، وكنت قد عدت من الهافر في الساعة العاشرة صباحا . كانت مادلين قد خرجت لتوها من الحمام فأخذنا نتحدث ... لا تسلني فيما كان يدور حديثنا فقد نسيت التفاصيل طبعا ... وما كنت لأدرى أن حديثنا هذا ستكون له أهمية فيما بعد . كل ما أعرفه هو أننا تناولنا طعام الغذاء في البيت .

ـ أين تقيم ؟

ـ كيف ؟ .... آه هذا صحيح ، فانني لم التق بك قبل

الآن ... انني اشتريت منزلا بشارع كليبر ، على مقربة من ميدان النجمة اليك بطاقتي .

ـ شكرا لك .

ـ وبعد أن تناولنا الغداء خرجنا ... اذكر الآن انه كان يجب على أن اقابل شخصا بالوزارة ... وبعد ذلك تمشينا في ميدان الاوبرا ... ثم ... هذا هو كل شيء ... مر اليوم كغيره من الأيام .

ـ والأزمة ؟

ـ وقعت بعد العشاء .

ـ هل يمكن أن تذكر لى التاريخ بالتحديد ؟

ـ يا للشيطان ! ... التاريخ ... ؟

تناول جيفين مفكرة صديقه المحامى وراح يقلب صفحاتها وهو يقول : ـ

ـ أذكر أن ذلك كان في آواخر فبراير بسبب الموعد الذى كان بيني وبين ذلك الشخص بالوزارة . أرى أن يوم ٢٦ فبراير كان يوم السبت ... لقد وقعت الأزمة يوم السبت ٦ فبراير بكل تأكيد .

جلس فلافيير على مسند مقعد بالقرب من جيفين وقال :

ـ ما الذى جعلك تفكر في الالتجاء الى ؟

ضم جيفين يده الواحدة الى الأخرى في قوة كما فعل من قبل . كان قد تخلص من عاداته القديمة ، ولكن هذه العادة بالذات ظلت تلازمه كما لو كان يحاول التشبث بنفسه كلما عاني اضطرابا ... وتمتم يقول :

ـ انك كنت صديقي وأذكر الآن انك ان كنت كثير الفضول ، تهتم بكل ماله علاقة وصلة بعلم النفس وما أحسبك كنت تريدني

على أن ألجأ إلى رجال الشرطة

واستطرد يقول عندما رأى التوتر الذى ارتسم على شفتي فلافيير والذى سرعان مازال :

ـ وما لجأت اليك إلا لأنك تركت خدمة الشرطة .

قال فلافيير وهو يداعب الجلد الذى يكسو مقعده :

ـ نعم . اني تركت خدمة الشرطة .

ورفع رأسه فجأة وقال :

ـ هل تعرف لماذا ؟

ـ كلا . ولكن ...

ـ ستعرف الحقيقة إن آجلا وإن عاجلا على كل حال ، فمن المحال اخفاء مثل هذه الأمور وقتا طويلا .

وود لو استطاع أن يبتسم وان يلقي باعترافه وهو متمالك لنفسه . لا سيما وقد شعر بالمرارة تغلب على صوته فقال :

ـ لقد واجهت صدمة قاسية ـ هل لك في قليل من النبيذ ؟

ـ كلا . شكرا لك .

صب فلافيير بعضا من النبيذ لنفسه وأخذ الكأس في يده واستطرد :

ـ ان ما حدث لى كان سخيفا ... كنت في ذلك الوقت مفتشا بادارة الشرطة . وأستطيع أن أقول لك الآن أنني لم أكن أحب هذه المهنة . ولكن أبي هو الذى أرغمني على الالتحاق بها ، كان قد أصبح قوميسيرا ، وكانت مهنة الشرطى بالنسبة له هى كل شيء . كان يجب على أن أرفض فلا حق له في ارغام فتي في مقتبل العمر على ... صفوة القول انه تعين على في أحد الأيام أن القي القبض على رجل ... اوه ، لم يكن بذى خطر... ابدا ...

ولكنه لجأ الى سطح احد البيوت ... وكان يرافقني زميل رقيق يدعى ليريش .

أفرغ فلافيير كأسه في جوفه دفعه واحدة ، فاغرورقت عيناه وأخذ يسعل بشدة ولكنه هز كتفيه ساخرا وقال مازحا :

ـ أرأيت ؟ ... ما أن أتذكر هذه القصة حتي تأخذني غصة ويفلت مني الزمام . كان سطح البيت منحدرا وكنا نسمع العربات وهى تسير في الشارع . كان الرجل مختبئا خلف المدفأة وهو أعزل من السلاح وكان يكفي أن نطوقه . ولكني لم أستطع الهبوط حيث يختبيء .

قال جيفين : ـ أه ... بسبب الدوار ... نعم ... أذكر ذلك الآن . كانت هذه حالتك وأنت معنا في الكلية .

ـ وهبط ليريش بدلا مني ... فوقع .

فعاد جيفين يقول : ـ آه !

ثم أطرق برأسه الى الأرض ، وظل فلافيير يحدق فيه وهو لا يعرف فيم يفكر ثم قال في صوت خافت :

ـ كان من الأوفق أن تعلم على كل حال .

فقال جيفين : ـ لا يمكن للمرء أن يتحكم في أعصابه في بعض الأحيان .

قال فلافيير في حنق : ـ بكل تأكيد .

وبقيا لحظة صامتين . وأخيرا رفع جيفين ذراعيه في حركه عفوية وقال :

ـ هذا أمر يؤسف له ، ولكن لا يدلك فيه .

فتح فلافيير علبة سجائره وقدمها لصديقه .

كان يشعر دائما بشعور غريب لا يوصف كلما ذكر قصته

هذه ، فما من أحد يأخذه مأخذ الجد أبدا ... كيف يستطيع أن يجعلهم يسمعون صيحة ليريش ؟ تلك الصيحة التي ترتفع وتدوى ... وتتغير نبراتها من الحدة والذعر والفزع بسبب سرعة السقطة البشعة ... ربما كانت زوجة جيفين تعاني سرا خفيا ولكن ما من عذاب يمكن أن يقارن بهذه الذكرى التي لاتريد أن تموت .. أتراها كانت تسمع هى الأخرى أناسا يصيحون وهى عندما تحاول النوم ؟ ... هل نراها قد تركت شخصا يموت بدلا منها ؟ ..

وسأله جيفين : ـ والآن .. هل يمكنني أن أعتمد عليه ؟

ـ ماذا تريد مني أن أفعل بالتحديد ؟

ـ أريد أن تراقبها ! ... أريد على الأخص أن تزودني برأيك ... أن مجرد حديثي عنها مع أى شخص يريح أعصابي ويزيح عن صدرى عبئا كبيرا ،فهل تقبل ؟

ـ اذا كان ذلك مما يبعث الاطمئنان الى قلبك !

ـ آه ، ايها الصديق العزيز روجر ... لا يمكن أن تتصور الى أى حد .. هل لديك ما يشغلك الليلة ؟

ـ نعم .

ـ يؤسفني ذلك ، فقد كنت أريد أن أدعوك لتناول العشاء عندى .

ـ كلا . فمن الأوفق ألا تراني زوجتك إن ذلك يجعل مهمتي سهلة يسيرة .

أمن جيفين على قول صديقه قائلا :

ـ هذا صحيح . ولكن يجب أن تراها على كل حال .

ـ خذها الى المسرح . ففي مقدورى عندئذ أن أراها دون أن تراني .

ـ سنذهب غدا الى مسرح ماريني فقد حجزت « لوجا »

ـ سأكون هناك. أخذ جيفين يدى فلافيير بين يديه وقال :

ـ شكرا لك ... أرأيت أنني على حق ؟ ... أنك رجل ذكي ،،، لما كنت لأفكر في المسرح !

ودس يده في الجيب الداخلى لسترته وقال في تردد :

ـ لا تغضب يا صديقي. ولكن يجب أن نسوى هذه المسألة أولا ، ولعلك تفهمني ... انك كنت كريما بما فيه الكفاية اذ قبلت الاهتمام بأمر مادلين.

فقال فلافيير : ـ أوه ... أمامنا الوقت الكافي لذلك.

ـ أصحيح ما أسمع ؟

ربت فلافيير على كتف صديقه وقال :

ـ ان هذه الحالة تهمني شخصيا ... وليس المال ... ان لدى احساسا بأنها تشبه حالتي وأنني ... نعم ... ربما أستطيع أن أخمن ما تخفيه.

ـ ولكني أؤكد لك أنها لا تخفي شيئا.

ـ سوف نرى.

أخذ جيفين قبعته الرخوة وقفازه وقال :

ـ هل أعمالك في رواج ؟

أجاب فلافيير : ـ طبعا. وليس هناك ما أشكو منه.

ـ اذا كان في مقدورى أن أكون ذا نفع فلا تتردد ... سوف أفعل بكل سرور ، فان أعمالى رائجة جدا ، خصوصا في هذه الأيام.

أشاح فلافيير بوجه ليتحاشي نظرة صديقه وقال وهو يتقدمه نحو باب الشقة :

ـ من هنا ... ان المصعد معطل .

واذ بلغا رأس السلم تحول جيفين الى فلافيير وقال له :

ـ أن لك مطلق الحرية في أن تتصرف كما يروق لك ، واذا ما أهتديت الى شيء فاخبرني به فورا ... اتصل بي بمكتبي تلفونيا أو أسرع لمقابلتي . ان مكتبي في العمارة المجاورة لعمارة الفيجارو . كل ما أطلبه منك هو الاترتاب مادلين في شيء ... فانها اذا علمت أننا نراقبها فلا يعلم الا الله ما سوف يقع .

ـ اعتمد علي .

ـ شكرا .

هبط جيفين السلم أخيرا . وتحول مرتين ليشير بيديه مودعا . وعاد فلافيير الى مكتبه وأطل من النافذة ، وشاهد عربة كبيرة سوداء بجوار الأفريز تنطلق بصاحبه نحو تقاطع الطرق ... مادلين ! ... لقد أحب هذا الاسم الرقيق ... كيف رضيت صاحبته أن تتزوج ذلك الرجل البدين ؟ ... ولا شك في انها تخدعه وتمثل عليه دورا ، ولا شك أن جيفين يستحق منها ذلك بسبب تصرفاته الخرقاء وبسبب ثرائه وسيجاره وبواخره ومجالس ادارته ... كان فلافيير يمقت الرجال المعتدين بأنفسهم أكثر مما يجب ، ومع ذلك فقد ود لو استطاع أن يكون له بعض هذا الاعتداد .

أغلق فلافيير النافذة بحركة عنيفة ثم ذهب الى المطبخ وهو يحاول اقناع نفسه بأنه بحاجة الى الطعام ولكن ماذا يأكل ؟ ... نظر الى العلب المحفوظة المرصوصة في الدولاب ... لقد جمع هو الآخر كمية كبيرة من المؤن وهو يحدث نفسه بأن هذه حماقة لأن الحرب لن تطول . ان هذه العلب المكدسة تجعله يشعر

بالغثيان . تناول بعضا من البسكويت وزجاجة من النبيذ الأبيض . وهم بالجلوس ولكن المطبخ لم يرق له فعاد الى المكتب وهو يلوك بين فكيه قطعة من البسكويت . فتح الراديو وهو في طريقه وكان يعرف فحوى البلاغ الحربي سلفا : نشاط الدوريات تبادل طلقات المدفعية من الجانبين عبر نهر الرين ... ولكن صوت المذيع نفسه سيكون نابضا بالحياة . جلس فلافيير وجرع قليلا من النبيذ . انه لم يفلح في سلك الشرطة ، وهو غير لائق للخدمة العسكرية ... ففيم يصلح اذن ؟ .. فتح أحد ادراج مكتبه وتناول منه ملفا أخضر كتب في ركنه الأعلى وفي الناحية اليمنى منه « ملف جيفين » ثم وضع به بضع وريقات بيضاء وجلس لايريم وهو يحدق في الفضاء .

الفصل الثاني

حدث فلافيير نفسه قائلا « لا ريب أنني أبدو غبيا » كان يتظاهر بأنه يقلب نظارته المعظمة بين يديه في شرود وان كان يحاول أن يبدو جادا ضجرا ، ولكنه لم يستطع أن يعقد النية لكى يرفعها الى عينيه ليرى مادلين . كانت قاعة المسرح تموج بأصحاب الثياب العسكرية ، وكانت النساء اللاتي يرافقن الضباط يبدو عليهن الزهو والارتياح . كان فلافيير يكره كل هذه المظاهر . كان يكره رجال الجيش ويكره الحرب وهذا المسرح الكبير.

وعندما حول رأسه نحو جيفين رآه عاقدا ذراعه فوق حاجز مقصورته في حين جلست مادلين الى الخلف منه قليلا ورأسها مائلة في رقة . كانت تبدو سمراء نحيلة ولكن فلافيير لم يتبين ملامحها في وضوح تام . كان يخامره شعور بأنها جميلة وديعة ، وربما كان ذلك بسبب شعرها الغزير... كيف استطاع جيفين البدين أن يحظى بحب مثل هذه المرأة الرشيقة ، بل كيف استطاعت هى أن تحتمل غزله ؟ ... ارتفع الستار عن مشهد لم يهتم له فلافيير وأطبق عينيه . سرح بفكره الى الوقت الذى كان يتقاسم فيه هو وجيفين غرفة واحدة اقتصادا للنقود . كان كل منهما خجولا وكان زملاؤهما من الطلبة يسخرون منهما ويتحدونهما في حين كان هناك شبان لا يعرفون الخجل يرافقون أى فتاة تروق لهم . وكان من بين هؤلاء الشبان شاب يعرف باسم ماركو لم يكن يتمتع بنصيب وافر من الذكاء أو الجمال ، وقد سأله فلافيير ذات يوم عن سبب تعلق الفتيات به فابتسم ماركو وأجاب :

ـ تحدث اليهن ياصاحبي كما لو كنت قد شاركتهن الفراش ، فهذه هى الوسيلة الوحيدة .

ولكن فلافيير لم يجرؤ على ذلك أبدا ... لم تطاوعه نفسه أن يغلظ في معاملتهن . بل أنه لم يجرؤ على رفع الكلفة وهو يتحدث اليهن . وعندما أصبح مفتشا في الشرطة راح زملاؤه يسخرون منه واعتبروه مرائيا . كانوا يخشونه لدرجةٍ ما . ففي أى وقت واتت جيفين الجرأة ... ومع أية امرأة ؟ ... ربما كانت مادلين هى أول امرأة في حياته . وقد نطق فلافيير باسمها كما لو كانت صديقة له كما لو كان جيفين عدوا مشتركا لهما . حاول أن يتخيل قاعة الطعام في فندق الكونتننتال ..... رأى نفسه بعين الخيال وهو يتناول العشاء لأول مرة مع مادلين ، ويشير الى رئيس الخدم ويختار أجود أنواع النبيذ ... كلا . هذا محال . لو أنه فعل ذلك لتعرض لسخرية رئيس الخدم . ثم تخيل نفسه بعد ذلك وهو يختار قاعة الطعام الفسيحة ، ثم فيما بعد ... في غرفتها ... ومادلين تنضو عنها ثيابها ولم لا ؟ أليست زوجته ؟ ... وفتح عينيه وتململ ... ود لو تخلى عن هذه القضية وغادر المسرح ولكنه كان يجلس في منتصف الصف ، وكان لابد له من جرأة غير عادية لكى يزعج جمعا من النظارة . ارتفعت من حوله الضحكات ودوى التصفيق في أرجاء الصالة لحظة ثم ساد الصمت . كان الممثلون يتحدثون عن الحب طبعا . وارتجف تقززا لمجرد احتمال فكرة كونه ممثلا . وفي حياء بحث عن مادلين بطرف عينيه ... وفي ظلام القاعة ... برزت له كما لو كانت صورة في اطار ، وأخذت الحلى تتلألأ حول جيدها وفي أذنيها ... كما بدت عيناها أيضا متلألئتين .. كانت تصغى في سكون وقد أمالت رأسها قليلا كتلك المجهولات وكأنها أحد تلك التماثيل الفنية التي يعجب بها المرء في المتاحف ، مثل الجيوكوندا والموناليزا وغيرهما .

هم فلافيير بأن يرفع نظارته الى عينيه ولكن جاره تململ في جلسته فخفض فلافيير رأسه ودس نظارته في جيبه في حركة بطيئة . لقد قرر أن ينصرف في فترة الاستراحة . كان واثقا الآن انه سيعرفها في أى مكان وان حس بالانزعاج لمجرد التفكير في أنه سيتبعها ويقتفي أثرها . لقد طلب منه جيفين شيئا غريبا ، واذا علمت مادلين انه ... مهما يكن من أمر فان لها الحق في أن تتخذ لها صديقا ، ولكنه كان يعلم أنه سوف يتألم كل الألم اذا اكتشف انها خائنة ... دوى التصفيق مرة أخرى وأبدى النظارة استحسانهم فرفع عينيه ورأى مادلين لاتزال تجلس مكانها وقرطاها في أذنيها يرسلان نفس البريق الثابت ، وتنبعث من عينيها ومضة من النور المشع ، ويدها البيضاء تنساب فوق حافة المقصورة التي يكسوها المخمل الداكن ، ان اللوحة لم يكن ينقصها غير التوقيع . خيل لفلافيير للحظة انه يرى هذا التوقيع في شكل حروف صغيرة حمراء « ر.ف » ... روجر فلافيير ... كان هكذا أمر سخيفا طبعا ... يقينا أنه لن يصدق ما قاله جيفين ... أرخى فلافيير العنان لخياله .... كان يجب أن يكون روائيا بسبب هذه الحشود من الصور التي تتدفق في مخيلته وكأنها مشاهد مسرحية واقعية .... ذلك السطح مثلا ... وانحداره والأضواء الخافية التي تنعكس على سطحه اللامع ، طنفته البراقة وحمرة المداخن والأدخنة التي يدفعها الهواء في نفس الاتجاه ، وضجيج الشارع الذى يبدو كصدى هدير سيل في قاع واد سحيق ... أخذ فلافيير يضم يديه الواحدة الى الاخرى كما كان يفعل جيفين . وانه اذا كان قد اختار مهنة المحاماة فذلك لكى يقف على الأسرار التي تنغص على المرء حياته . فان جيفين نفسه ، بمصانعه وأصدقائه وثروته

عاجز عن أن يعيش . ان هؤلاء الناس الذين على غرار ماركو يكذبون اذا يدعون أنهم يجهلون حقيقة ما يواجههم من العراقيل ، ومن يدرى ، لعل ماركو نفسه يبحث الآن بدوره عن صديق يبثه همومه وأشجانه .. ها هو ذا أحد الممثلين يقبل زميلته فوق خشبة المسرح ... كذب ورياء ... ان جيفين هو الآخر يقبل مادلين ، ولكن مادلين مع ذلك غريبة عنه . والواقع انهم جميعا سواء ، يتعثرون فوق منحدر آخره فراغ .... كانوا يضحكون ويمارسون الحب ولكن الخوف كان يتملكهم ... ترى ماذا يكون مصيرهم لو لم توجد طوائف القساوسة والأطباء ورجال القانون ؟.

هبطت الستائر ثم ارتفعت ، وأضيئت الثريات فملأت المكان بضوئها وكست الوجوه بلون أشبه بلون الرماد ووقف النظارة وراحوا يصفقون . أما مادلين فأخذت تلوح بالبرنامج الذى كان في يدها في حين راح زوجها يهمس في اذنها ببعض الكلمات . لقد بدت لفلافيير عندئذ في الصورة المعروفة ، صورة المرأة ذات المروحة ... أو لعلها صورة بولين لاجرلاك ... كان من الأوفق أن ينصرف ، فتتبع جمهور النظارة في الأورقة والممرات ، وعندما شق له طريقا بينهم في آخر الأمر أوشك أن يصطدم بجيفين وزوجته . وقد مرت مادلين بجواره حتي كادت أن تلمسه ورآها عن قرب ولكنه لم يعرفها الا بعد أن تجاوزته . أراد أن يلتفت نحوها ولكن بعض الضباط دفعوه وهم في طريقهم الى البار فهبط بضع درجات ولم يلبث أن عدل عن غرضه ... شعر بأنه في حاجة الى أن ينفرد بنفسه .

كان يحب ليالى الحرب التي تعيشها باريس في ذلك الوقت ، ويحب هذا الشارع المقفر حيث تنساب ريح هادئة مرت في

طريقها بالمزارع والمروج الخضراء فاكتسبت رائحة الزهور . كان يتقدم دون أن يصدر عنه صوت . واخذ وجه مادلين يعود الى مخيلته دون صعوبة .. شعرها الأسود المصبوغ بالحنة ، وتلكما العينان الصافيتان الشديدتا الزرقة واللتان بدتا له مجردتين من الحياة عاجزتين عن التعبير عن أى عاطفة . أما الوجنتان فبدتا غائرتين تحت العظمتين البارزتين تكسوهما ظلال مستحبة ، والفم دقيق عليه مسحة من أحمر الشفاة وكأنه فم طفلة حالمة .. مادلين .. اسم جميل رقيق .. أما جيفين .. كيف رضيت أن تحمل اسما سخيفا كهذا الاسم .. أنها تعسة بلا شك ولا ريب أن جيفين قد نسج رواية مضحكة دون أن يدرى أن زوجته تموت الى جواره سأما وضجرا .. كانت حلوة رقيقة الى حد الاستسلام والرضا بحياة كلها ترف صاخب .. ترى ، هل فقدت ميلها الى الرسم ؟ .. لم يعد الأمر يتعلق بمراقبتها وانما بالذود عنها . ومن يدرى ؟ .. ربما بمساعدتها أيضا .

وهنا قال يحدث نفسه : انني أخرف .. بضع ساعات أخرى وأصبح عاشقا . ان مدام جيفين بحاجة الى مشروب منعش ، وهذا هو كل ما في الأمر .

وأسرع الخطا غير راض عن نفسه ، شاعرا بالمهانة من غير سبب . وعندما بلغ بيته كان قد عقد النية على ابلاغ جيفين بأن قضية مفاجئة تدعوه الى الريف اذ لماذا يضحى بهدوئه وراحته في سبيل رجل لا يهتم بها أما كان في مقدور جيفين أن يبدى اهتماما به قبل اليوم ؟ .. فليذهب اذن الى الشيطان !

أعد لنفسه مشروبا ساخنا . وقال يسائل نفسه ماذا يكون رأيها فيه اذا رأته ؟ .. شاب كهل منطو في عادته ووحدته .. قضي

فلافيير ليلته مسهدا لا يغمض له جفن ، وعندما غادر فراشه تذكر أنه لابد له من أن يقتفي أثر مادلين . وأحس بالخزى للسرور الذى تملكه عندئذ .. ولم يستطع أن يقصي عنه شعوره بهذا السرور أدار مفتاح المذياع فسمع صوت المذيع وهو يقرأ نشره البلاغ الحربي : اطلاق النار ونشاط الدوريات . حسنا .. أحس أن ذلك لا يمنعه من الشعور بالسعادة على الرغم من كل ذلك . فرغ من دراسة بعض قضاياه .. وهو يصفر ، ثم تناول غداءه في مطعم اعتاد الاختلاف اليه ، ولم يعد يشعر بأى ارتباك وهو يسير بثيابه المدنية ويحس بالنظرات المتشككة أو العدائية التي يرميه بها الماره . لم يكن الذنب ذنبه اذا كانوا قد سرحوه . ولم ينتظر حتي الساعة الثانية لكى يذهب الى شارع كليبر ، فقد كان الجو صحوا بعد أسبوع مكفهر ، وكان الشارع يكاد يخلو من الماره .. رأى فلافيير العربة الكبيرة السوداء طراز تالبوت واقفة أمام عمارة شاهقة فتجاوزها وهو يسير على مهل .. في هذه العمارة تقطن مادلين . أخرج جريدة من جيبه وسار في بطء جيئة وذهابا أمام واجهات المنازل الظليلة .. كانت الجريدة حافلة بأنباء الحرب .. طائرة استكشاف أسقطت في الأندلس وامدادات مرسلة الى مدينة نارفيك .. أنه لا يستطيع أن يفعل شيئا فهو في أجازة ، ولديه موعد مع مادلين .. ان هذه الساعة ملك له وحده عاد أدراجه ورأى مقهى صغيرا يضع ثلاث مناضد على الطوار ، بين شجرتين ، فجلس الى إحداها وطلب قدحا من القهوة .

أخذ ينظر الى العمارة فاحصا ، والى النوافذ العريضة الكبيرة والى الشرفة التي صفت فيها آنية الزهور ثم الى الطابق العلوى السطح والسماء ذات الزرقة الباهته . وهبطت عيناه لتشاهدا

السيارة التالبوت وهى تنطلق نحو ميدان النجمة : جيفين .. اذن فلن تتأخر مادلين عن الخروج .

وجرع القهوة الساخنة دفعه واحدة وابتسم لنفسه .. لم يكن هناك سبب يحدوها الى الخروج .. لا بل سوف تخرج .. هذه الشمس المشرقة وأوراق الأشجار تمايل فوق أغصانها كأنها تهيم في الفضاء .. أجل سوف تخرج ، لأنه ينتظرها ..

وفجأة ظهرت مادلين على الطوار المقابل فترك جريدته واجتاز الشارع مسرعا . كانت تلبس تايرا رماديا مشدودا عند الخصر وتمسك في يدها حقيبة سوداء . دارت بعينيها فيما حولها وهى تفرغ من لبس قفازيها . كانت تحيط عنقها بدائرة من الدانتيلا الرقيقة ، وتغطى جبينها وعينيها بغلالة رفيعة كانت تضفي عليها جمالا فوق جمالها تبدو أشبه « بالمرأة المقنعة » .. وود لو استطاع أن يرسم هذه المرأة الرقيقة التي تحوطها الشمس بهالة براقة أمام هذا البيت الشاهق . فقد هوى الرسم هو الآخر ومارسه فيما سبق ولكنه لم يصب فيه نجاحا كبيرا ، وعزف على البيانو مقطوعات لا بأس بها فلافيير كان من هؤلاء الناس الذين يمقتون المعيشة المتوسطة دون أن يحاولوا الارتفاع والسمو بأنفسهم الى مرتبة النبوغ .. مواهب كثيرة وصغيرة وحسرات أكثر.. ولكن لا بأس مادامت مادلين هنا .

أخذت تسير الى أن بلغت ميدان التروكاديرو ، وهناك عبرت الساحة البيضاء المتألقة . لم تكن في يوم من الايام اشبه بالحديقة الفيحاء كما كانت في ذلك اليوم بلونيه الأزرق والأحمر فوق الأراضي الخضراء فبدأ بينها الشبه بالحيوان الألوف وامتدت الحدائق حول نهر السين بدرجاتها التي بدت أشبه بالشلالات

البيضاء تحيط بها الورود والأزهار من كل جانب.. وأطلقت قاطرة صفيرا مكتوما تردد مختنقا تحت قناطر النهر.. أحس فلافيير بأنه معلق بين السلم والحرب ، يثقل عليه انفعال هادىء ولكنه شديد التأثير. هل يرجع هذا الى أن مادلين كانت تسير في أعياء وتثاقل ؟ كان يبدو عليها التردد والحيرة ، وقفت أمام باب أحد المتاحف ولكنها لم تلبث أن واصلت سيرها كأنها مدفوعة بتيار خفي ، وعبرت الشارع ثم تمهلت لحظة مع غيرها من المشاه عند أول شارع هنرى مارتن ، وأخيرا استقر رأيها ودخلت مدافن باسي .

وراحت تمشي في بطء بين القبور . وكان فلافيير على استعداد لأن يقسم أنها تستمتع بسيرها هذا كما لو كانت تقوم بنزهة . لم تلبث أن تركت الممر الطويل وصفوف الصلبان المتتابعة سارت في ممر منعزل وهي تنظر في شرود ذات اليمين وذات الشمال تستطلع اللوحات التي تحمل اسماء الراقدين في القبور . هنا وهناك تلمع باقة ورود وكانت العصافير تزقزق وأصوات المدينة تبدو كأنها آتية من بعيد الى درجة أنه كان في استطاعة المرء أن يتخيل أنه في بلد بعيد ، بل في عالم آخر . كانت المدافن خالية في تلك الساعة ولكن كل صليب كان دليلا على وجود شخص وكل لوحة توعز بوجود كائن كان حيا في يوم ما كانت مادلين تمشي في هدوء بين سكان هذا العالم الغريب وظلها يمتد أحيانا ويمتزج بظلال القبور أو يتكسر عليها أحيانا أخرى وقفت فجأة تقرأ إسما منقوشا كاد يمحى « آل مرسييه : الفونس مركادييه كان أبا رؤوفا وزوجا طيبا » وبدت مادلين مسرورة راضية في هذا المكان الخفي المهجور ، وهي تستأنف سيرها الى أن بلغت وسط المدافن تقريبا ثم انحنت

فالتقطت زهرة تيوليب حمراء واقتربت من أحد القبور وهي لا تزال تمشي على مهل وتوقفت أمامه . واختبأ فلافيير خلف قبر غير بعيد واستطاع أن يراقبها كما يحلو له . كان وجهها خاليا من أى انفعال ، وبدت ملامحها هادئة عادية تنم عن الرضا والسرور . ترى فيم كانت تفكر؟ .. لقد تدلت ذراعاها الى جانبيها وأصابعها لا تزال تمسك بزهرة التيوليب . ومن جديد بدت أشبه باحدى تلك النسوة اللاتي خلدتها عبقرية الفنانين . كانت واقفة في مكانها جامدة تتأمل القبور وقد استغرقت في تأملاتها . سأل فلافيير نفسه : أهذه هى الأزمة التي يتحدث عنها جيفين؟ .. اتكون مصابة بنوع من التصوف ؟ .. ولكن للتصوف اعراض أخرى مميزة لا يمكن أن يخطئها أحد . لا ريب في انها تبتهل وتطلب الرحمة والغفران لقريب لها اختفي منذ قريب ومع ذلك كان القبر قديما جدا يدل على انه مهجور منذ زمن بعيد .

نظر فلافيير الى ساعته . لقد لبثت مادلين أمام القبر اثنتي عشرة دقيقة ثم عادت الى الممر العام وراحت تفحص باقي القبور بنفس الاهتمام ، تماما كما لو كانت على دراية وافية بفن المعمار الجنائزى . وفيما كان فلافيير يمر بالقبر الذى توقفت عنده مادلين ، قرأ الاسم المنقوش عليه :

بولين لاجرلاك

١٨٤٠ ـ ١٨٦٥

ومع أنه كان يتوقع أن يجد هذا الاسم إلا انه شعر بالاضطراب والانزعاج واستولى عليه قلق غريب ، وأخذ يسير خلفها وهو يقول لنفسه « اذن فجيفين على حق » . هناك فعلا شيء عجيب في تصرفات مادلين ، وعاد يراها بعين الخيال أمام

القبر . لم تكن قد ضمت يديها وحنت رأسها في خشوع الصلاة ، بل بقيت واقفة مكانها ـ جامدة ، كما يحدث عندما يجد المرء نفسه في مكان عامر بالذكريات .. في البيت الذى ولد فيه والذى ملأه بخوف مبهم وازداد اقترابا من مادلين ولم تكن قد تخلت عن زهرة التيوليب بعد أن انحدرت نحو نهر السين وقد تقوس كتفاها ، ودلت مشيتها على الاعياء .

بلغا أرصفة الميناء النهرى واخذت مادلين تسير على غير هدى وهى تتأمل صفحة الماء المتلألئة . ومر بها بعض الرجال وهم يمسكون بقبعاتهم في أيديهم ويجففون العرق الذى يكسو جباههم . كان الحر خانقاً والماء شديد الزرقة على طول الشاطىء . وكان بعض المتشردين يترتدون على ضفاف النهر في حين أخذت العصافير تزقزق حول الجسور . وبدت مادلين في التايير الضيق والحذاء العالى غريبة نوعا ما في هذا الجو وكأنها تنتظر قطارها . كانت تدير زهرة التيوليب بين أصابعها من وقت لآخر ، الى أن عبرت السين واعتمدت بمرفقيها على حاجز الجسر والزهرة تلامس وجنتيها اتراها تنتظر أحدا ؟ .. أم لعلها تستريح ؟ .. أو لعلها كانت تحاول تبديد ضجرها وهى تتابع بعينيها انكسار التيار حول الزوارق وتموجات الماء بالانعكاسات الساحرة ؟ انحنت مادلين قليلا ولا ريب أنها فعلت ذلك ليتسني لها أن ترى خيالها على صفحة الماء أخذ فلافيير يزداد اقترابا دون أن يدرى لماذا ، ولكنها لم تتحرك بل تركت زهرة التيوليب تسقط في النهر فبدت كنقط صغيرة حمراء تبتعد في بطء وهى تدور حول نفسها وتتمايل مع تلاطم الأمواج وتدافعها . الى أن اختفت خلف أحد الزوارق .

واهتم فلافيير هو الآخر بالحطام الصغير ، وما هى الا لحظات

قصار حتي لم تعد غير نقطة صغيرة حمراء ولم يستطع أن يرفع بصره عنها . وكانت تبتعد مسرعة ضائعة وسط النهر الكبير ، ولم تلبث أن أختفت ولا ريب أنها غرقت .

ضمت مادلين يديها وأخذت تفحص صفحة الماء المتلألئة . وخامر فلافيير احساس بأنها تبتسم ثم اعتدلت في وقفتها وسارت الى الشاطئ الايمن عند الطرف الآخر من الجسر واتخذت طريقها عائدة الى منزلها غير مكترثة بضجيج الشاطئ وصخبه . وفي الرابعة والنصف بلغت باب العمارة . أحس فلافيير بالحيرة والعجز ، ماذا يفعل الآن بأمسيته ؟ تسببت له هذه المطاردة في شيء من القلق والانزعاج وأعادت اليه شعوره بالوحدة القاسية ، فسار الى مقهى صغير واتصل بجيفين تليفونيا ؟

ـ ألو .. أهذا أنت يابول ؟ .. أنا روجر .. هل أستطيع أن أراك لحظة ؟ ..

لاشيء مهم .. أريد أن ألقي عليك بضعة أسئلة لا أكثر .. حسنا . انني قادم .

وكان جيفين يتكلم من مكتبه كما يتكلم الأمير ذو السلطان والواقع ان المكتب كان يشغل طابقا بأكمله قالت له السكرتيرة ردا على سؤال فلافيير :

ـ هل لك أن تنتظر يا سيدى ؟ .. ان المدير في اجتماع خاص .

ادخلته الى غرفة كبيرة فاخرة الرياش . فأخذ يحدث نفسه : هل يحاول جيفين أن يخدعني ؟ ... ولكن لا .. فلم يلبث أن رأى جيفين وهو يودع زائريه .

وخاطبه جيفين قائلا : يسرني أن أراك .. معذرة ، اننا نعيش على أعصابنا هذه الأيام .

كان المكتب مضاءاً ومفروشا على الطريقة الأمريكية .. كله من المعدن .. المكتب ودولاب الملفات والمناضد الصغيرة والمقاعد من المعدن والجلد .. وطفاية سجاير من النيكل . وعلى الجدران خريطة كبيرة مزودة بخيط أحمر ودبابيس ليشير بها الى خط النار .

وأستطرد جيفين :

ـ هل رأيتها ؟

جلس فلافيير وأشعل سيجارة ثم قال : نعم .

ـ ماذا فعلت ؟

ـ ذهبت الى مدافن باسي .

ـ ايه ؟ .. عند قبر .. ؟

ـ نعم ؟

قال جيفين : ألم أقل لك ؟

رأى فلافيير على ركن من المكتب بجوار التليفون صورة لمادلين ، ولم يستطيع أن يرفع عينيه عنها وعاد يقول :

ـ ليس على القبر غير اسم واحد ولكن لاشك أنه يضم رفات الأقارب أيضا ؟

ـ أبدا إن الاقارب يرقدون في مقاطعه الاردين ومدفن عائلتي أنا في سانت أوين .. إن بولين لاجرلاك هى ، الوحيدة المدفونة في مدافن باسي . ولكن هل تستطيع أن تفسر لى معني هذه الزيارة ، ولك أن تثق أنها ليست أول زيارة لها هناك ؟

ـ الواقع أنها لم تسأل أحدا من الحراس عن الطريق .. كانت تعرف موضع القبر .

ـ طبعا ألم أقل لك أن بولين لاجرلاك هذه تستحوذ على كل أفكارها ؟

دَار جيفين خلف مكتبه ويداه في جنبيه وقد انتفخت رقبته وأوداجه ، ثم دق جرس التليفون في هذه اللحظة فتناول السماعة في حركة مفاجئة وأخذ يضرب بها راحة يده وهو يقول :

ـ أنها تتصور أنها بولين .. هل فهمت الآن لماذا لا أشعر بأى اطمئنان ؟

وارتفع صوت مكتوم من تجويف يده فرفع السماعة إلى اذنه وصاح :

ـ آلو .. أنا سامع ! .. آه ! .. أهذا أنت أيها الصديق العزيز؟

نظر فلافيير الى صورة مادلين .. الى وجهها وعينيها الخاليتين من المشاعر .. كان جيفين يملى أوامره مقطب الجبين ، ثم ألقي بالسماعة مكانها ولم يتمالك فلافيير من الندم لمجيئه . خامره شعور مفاجىء بأن سر مادلين جزء من نفسها وأن جيفين لا حق له في الاطلاع عليه . وعادت نفس الفكرة الغريبة تقض مضجعه .. اذا كانت روح بولين ..

قال جيفين : ـ أنهم يزعجونني .. ويتعجلون طلباتهم في هذه الأيام يا صديقي العزيز .. لا يمكن أن تفهم . بل من الاوفق أن لا تفهم فان هذا يدعو الى اليأس .

فسأله فلافيير : ـ ما اسم زوجتك قبل زواجها ؟ هل هو لاجرلاك ؟

ـ كلا .. ان اسمها جيفور .. مادلين جيفور .. مات أبوها منذ ثلاث سنوات ، وكان يملك مصنعا للورق في اقليم ميزيير .. وكان مصنعا كبيرا .. وجدها هو الذى أسسه .. كان من مواليد ميزيير .

ـ وبولين لاجرلاك ؟ .. لا ريب أنها كانت تقيم في باريس ؟

ـ مهلا ..

راح جيفين ينقر بأصابعه المكتنزة فوق المكتب وهو يقول :
ـ ان الأمر يختلط على .. نعم .. لقد أرتني أم زوجتي ذات يوم بيت الجدة بولين ، وهو بيت قديم يقع في شارع الآباء القديسين ، اذا كانت ذاكرتي لا تخونني .. ويخيل لى أن بالطابق الأرضي منه حانوت لبيع العاديات والآثار . ما رأيك في مادلين الآن وقد رأيتها ؟

هز كتفيه وقال ؟ ـ لا أستطيع أن أكون رأيا في الوقت الحاضر .

ـ ولكنك تعتقد مثلى أن بها شيئا ما .

ـ يبدو لى ذلك .. نعم . هل تعرف اذا كانت قد عدلت نهائيا عن الرسم ؟

ـ أوه .. نهائيا . وقد استبدلت الاستوديو الذى كنت قد اعددته لها بصالون .

ـ ولماذا عدلت عنه ؟

ـ لا أدرى .. أنها كثيرة التقلب . ثم أن المرء يحب التغيير .

نهض فلافيير مادا يده إلى جيفين وهو يقول : ـ لا أريد أن أحول بينك وبين الصديق العزيز ، فانني أرى انك مشغول جدا .

أجاب جيفين : ـ لست أبالى ، فان مادلين أهم عندى من كل شيء آخر . أجبني بصراحة .. هل تعتقد أنها مجنونة ؟

ـ كلا . بكل تأكيد . هل تقرأ كثيرا ؟ .. وهل لها عادات شاذة ؟

ـ كلا . انها تقرأ قليلا كغيرها من الناس .. الكتب الرائجة والمجلات المختلفة .. ولا أعرف لها عادات ما .

فقال فلافيير : ـ سأستمر في مراقبتها .

ـ أراك غير متحمس .

ـ ذاك ثمة شعور يخامرني بأننا نضيع وقتنا . لم يستطع أن يعترف لجيفين أنه عقد النيه على أن يقتفي أثر مادلين الأسابيع والشهور وأنه لن يعرف طعما للراحة إلا بعد أن يكتشف سرها .

وقال جيفين : ـ أرجوك .. انك ترى كيف أعيش . المكتب والسفر .. لا أجد دقيقة واحدة من وقتي فأرجو أن تهتم بها . سوف يشعرني ذلك بمزيد من الطمأنينة والهدوء .

وعندما وصلا الى المصعد استطرد قائلا : ـ اتصل بي تليفونيا اذا اكتشفت شيئا جديدا .

ـ أعدك بذلك .

خرج فلافيير ولم يلبث أن ألفي نفسه يمشي مع جمهور الساعة السادسة . اشترى جريدة مسائية وكانت لا تتحدث الا عن أنباء الحرب . طائرتان اسقطتا عند حدود لوكسمبورج ، وأكدت النشرة أن الألمان سيخسرون الحرب وأنهم محاصرون ومقضي عليهم بالجمود والاختناق وأن هيئة أركان الحرب توقعت كل شيء ولم تعد تنتظر لكى تنفض يدها منهم غير هجوم بائس من ناحيتهم . تثاءب فلافيير وطوى الجريدة ودسها في جيبه . لم تعد الحرب تثيره كما كانت تفعل في الأيام السابقة . كانت مادلين هى الشاغل الوحيد الذى يشغله . وجلس في شرفة مقهى وطلب زجاجة صغيرة من الصودا .. مادلين واقفة في خشوع أمام قبر بولين . أهو الحنين الى القبر؟ .. كلا . لم يكن هذا ممكنا .. ولكن هل يستطيع الانسان أن يعرف ما هو الممكن ؟ .. عاد فلافيير الى بيته والصداع يكاد يحطم رأسه . أخذ يقلب صفحات الموسوعة حرف اللام ولكنه بالطبع لم يعثر على شيء . كان يعرف سلفا أن اسم لاجرلاك

ليس من الأسماء المشهورة ، وأنه لا يمكن أن يكون موجودا في الموسوعة . ولكن ما كان للنوم أن يواتيه قبل أن يتحقق من ذلك .. وأدرك أن هذا التصميم من جانبه سيجعله يقدم على تصرفات كثيرة سخيفة وأنه ما أن يفكر في مادلين حتي يفقد زمام السيطرة على نفسه .. غادرة التيوليب ! .. تناول قلما حاول أن يرسم صورتها وهي منحنية برأسها فوق النهر ولكنه لم يلبث أن أحرق الورقة وتناول قرصين من الاسبرين .

الفصل الثالث

كان يقوم بحراسته جندى يحمل سنكيا . فخرجت مادلين بعد انصراف جيفين مباشرة كما فعلت بالأمس . ولكنها في هذه المرة كانت تسرع الخطا وتبعها فلافيير عن كثب وهو يخشي وقوع ما لا تحمد عقباه لأنها كانت تعبر الشوارع في سرعة وبدون حذر . ترى الى أين تسرع هكذا ؟ كانت قد استبدلت التايير الرمادى بآخر عادى ذى لون بني ، كانت تغطى رأسها ببيريه وتلبس حذاء عاديا بدون كعب الأمر الذى غير من مظهرها وجعلها تبدو أصغر سنا أقرب الى الاسترجال وانعطفت مادلين الى شارع سان جرمان وهى تحاول أن تسير في ظل المباني العالية . أتراها تنوى الذهاب الى حدائق اللوكسنبورج أم الى صالة الجغرافيا ؟ ولعلها ذاهبة لحضور جلسة من جلسات تحضير الأرواح .. وسرعان ما أدرك فلافيير ماغاب عنه فإزداد دنوا واقتربا زيادة في الحرص والاطمئنان .. دنا منها الى حد أنه أشتم عطرها .. رائحة معقدة شيئا ما تعيد الى الذهن رائحة الزهور الذابلة والأرض المحروثة .. أين شم هذه الرائحة قبل اليوم ؟ .. أجل .. كان ذلك بالأمس في ممرات مدافن باسي المقفرة لقد أحب هذه الرائحة فقد ذكرته ببيت جدته المبني على مقربة من سومور في سفح الجبل حيث قضي أيام طفولته وحداثته . وانثنت مادلين الى شارع الآباء القديسين وأحس فلافيير عندئذ بشيء من الهدوء المرير وهو يواجه احساسا لا يدرك له معني ومع ذلك ..

كان البيت الذى حدثه عنه جيفين قائما في وسط هذا الشارع . لم يكن هناك شك في أنه هو نفس البيت لأن مادلين

دخلته ، ثم أنه كان هناك حانوت لبيع العاديات . ولم يخطئ جيفين الا في شيء واحد فقد كان البيت المذكور عبارة عن فندق علقت عليه لافتة بها هاتان الكلمتان « فندق العائلات » ولم يكن يضم أكثر من عشرين غرفة .. كان بيتا صغيرا من تلك البيوت الصغيرة التي ينزل فيها بعض الريفيين والأساتذة والقضاة المتزمتون . وعلى الباب كانت لافتة صغيرة كتب عليها : (لاتوجد غرف شاغرة) .. دفع فلافيير المصراع ورأى أمام مكتب الاستقبال امرأة عجوزا منهمكة في غزل الصوف على ضوء مصباح المكتب نظرت اليه المرأة من خلال عويناتها فأسرع يقول :

ـ كلا . لا أريد غرفة . انما أريد أن أعرف اسم السيدة التي دخلت منذ لحظة .

ـ من أنت ؟

بسط فلافيير ، تحت ضوء المصباح ، بطاقته القديمة التي تدل على مهنته السابقة مفتش بالشرطة ، وكان قد احتفظ بها كما يحتفظ بكل شيء قديم .. المباسم القديمة وأقلام الحبر التي لم تعد تصلح للاستعمال والفواتير المسددة . كانت حافظته زاخرة بالخطابات التي حال لونها وايصالات البريد وكعوب الاذونات .. وقد هنأ نفسه لأنه كان على حق هذه المرة .. ونظرت اليه العجوز بطرف عينها وقالت :

ـ اسمها مادلين جيفين .

ـ أهذه أول مرة ترينها فيها ؟

فأجابت : ـ كلا . أنها تأتي الى

ـ هل تستقبل أحدا في غرفتها ؟

ـ انها امرأة محترمة .

وخفضت عينيها وابتسمت في خبث . وعاد فلافيير يقول في اصرار :

ـ أجيبي . ان هذا لا يمنع من أن أحدا ؟ .. صديقة مثلا ؟

ـ كلا . أنها لم تستقبل أحدا قط .

ـ ماذا تفعل اذن ؟

ـ لا أدرى .. انني لا أراقب نزيلاتي .

ـ في أية غرفة تقيم ؟

ـ في الغرفة رقم ١٩ بالطابق الثالث .

ـ أهي غرفة جميلة ؟

ـ بل هي غرفة جميلة . لدى أفضل منها . ولكنها أثرت على هذه الغرفة بالذات أنني عرضت عليها الغرفة رقم ١٢ ولكنها أصرت على استئجار الغرفة رقم ١٩ لسببين . الأول لأنها تقع في الطابق الثالث والثاني لأنها تطل على الفناء .

ـ ولماذا ؟

ـ لما تذكر لى شيئا .. ربما لأن الشمس تدخلها طوال النهار .

ـ هل أفهم من ذلك أنها استأجرت هذه الغرفة لمدة طويلة ؟

ـ نعم بالشهر .

ـ منذ متي ؟

كفت العجوز عن تحريك ابرتيها ، وراحت تقلب صفحات السجل ثم قالت .

ـ منذ ثلاثة أسابيع .. في أوائل ابريل .

ـ هل تبقي في غرفتها مدة طويلة في العادة ؟

ـ أحيانا ساعة كاملة وأحيانا أقل .

ـ ألا تحضر معها أية أمتعة ؟

ـ كلا أبدا .

ـ وهل تأتي كل يوم ؟

ـ بل كل يومين أوثلاثة .

ـ ألم يدهشك أمرها ؟

رفعت العجوز نظارتها فوق جبينها ودعكت جفنيها المجعدين في بطء ثم قالت :

ـ كل الناس غريبو الأطوار . ولو أنك قضيت حياتك في استقبال النزلاء لما ألقيت على هذا السؤال .

ـ ألم تتحدث في التليفون ؟

ـ كلا .

ـ هل يرجع انشاء هذا الفندق الى وقت طويل ؟

اتسعت العينان المجعدتان وراقبتا فلافيير في شيء من الحقد . وأجابت صاحبتها :

ـ خمسين سنة .

ـ وماذا كان قبل ذلك ؟

ـ بيتا كغيره من البيوت على ما أعتقد .

ـ هل تعرفين شيئا عن بولين لاجرلاك ؟

ـ كلا . ولكن اذا كانت هذه المرأة قد نزلت بهذا الفندق فانني أستطيع أن أبحث في سجلاتي .

ـ لاداعى لذلك .

وتبادلا النظرات من جديد . وقال فلافيير : ـ شكرا لك ..

وتمتمت العجوز تقول : ـ لا موجب للشكر .

وراحت ابراتاها تشبك الصوف من جديد . أما هو فقد بقي معتمدا بمرفقه فوق المكتب بينما راحت الأخرى تعبث بقداحته في جيبه .

وقال وهو يحدث نفسه : (لقد بدأت أصدأ . لم أعد أحسن القيام بتحقيق) وود لو صعد الى الطابق الثالث من خلال الباب . ولكنه كان يعلم مسبقا أنه لن ير شيئا فألقي بالتحية على المرأة العجوز وانصرف .

ولماذا أصرت مادلين على الحصول على الغرفة رقم ١٩ بالطابق الثالث والمطلة على الفناء ؟ لاريب أنها هي نفس الغرفة التي أقامت فيها بولين .... ولكن مادلين كانت تجهل ذلك كما أنها لم تكن تعلم أن ـ بولين ماتت منتحرة ... اذن ؟ ... أى نداء غامض جذبها الى هذا الفندق .. أهو مجرد ايحاء ، ام الهام ، أم اهتزاز الشخصية ؟ .. ولكن فلافيير لم يقتنع بأى من هذه التفسيرات . أن مادلين كانت طوال حياتها عادية متزنة . وفوق ذلك فقد قام بفحصها اخصائيون مهرة . كلا ..... لابد أن هناك شيئا آخر .

فلافيير عاد أدراجه وهو يوشك أن يركض ، فقد خرجت مادلين من الفندق في تلك اللحظة واتجهت نحو أرصفة الميناء النهرى . لم تكن قد بقيت بالغرفة أكثر من نصف ساعة ، وأخذت تسير على عجل فتجاوزت محطة أورساى ثم استوقفت سيارة أجرة ، واندفع فلافيير نحو سيارة أخرى وهو يقول لسائقها :

ـ اتبع السيارة الرينو التي انطلقت الآن .

كان يجب أن يستقل سيارته السيمكا ، فقد أوشكت مادلين أن تفلت منه . وخشي أن تلتفت الى الخلف ، ولكن حركة المرور كانت على أشدها فوق جسر الكونكورد ، وكذلك كان شارع الشانزليزيه مزدحما ازدحاما شديدا .. كانت سيارة مادلين تسير في طريقها نحو ميدان النجمة ، وظن فلافيير أنها في طريقها للعودة

الى البيت . كانت الشوارع تغص بالضباط والجنود ، والعربات رافعة أعلاما كما لو كان اليوم هو ١٤ يوليه . كان الجو مشحونا بحمى الحرب ، والجميع يعيشون في خوف وخطر مبهمين . ودارت الرينو بقوس النصر ثم انطلق نحو بوابة مايو وشارع نويلى الذى كان يمتد مستقيما تحت أشعة الشمس الساطعة . كانت العربات فيه أقل منها في الشوارع الأخرى ، وكانت تسير على مهل .

قال السائق يخاطب فلافيير : يظهر أنهم ينوون توزيع البنزين بالبطاقات ، لذا نحن أصحاب سيارات الأجرة أيضا .

وحدث فلافيير نفسه فقال انه سوف يستطيع الحصول على ما يشاء من البنزين بفضل جيفين ، ولكنه لم يلبث أن كره نفسه لهذا الخاطر ، فعشرة لترات زيادة أو أقل لن يكون لها أثر يذكر .

وهبطت مادلين في الناحية الأخرى من جسر نويلى . وكان فلافيير متأهبا فنقد السائق أجره وهم بأن يتبع مادلين . ولكنه دهش اذ رآها تسير في بطء وفي غير اكتراث تماما كما فعلت بالأمس . وكانت تتمشي بمحاذاة نهر السين بدون غاية ظاهرة ، ولم تكن هناك أية صلة بين شارع الآباء القديسين وبين هذا الرصيف في حى كوربيفوا . لماذا هذه النزهة اذن ؟ كانت الأرصفة أجمل بكثير داخل باريس نفسها ، فهل كانت تنشد الهرب من الناس ؟ ... أو لعلها كانت بحاجة الى التفكير وهى تتابع سير الحياة الوئيد ؟ وتذكر جزر اللوار الصغيرة وألسنة الرمال المحرقة وأشجار الصفصاف على ضفاف النهر حيث تعبر الضفادع عن مرحها وغبطتها بنقيقها الرتيب المتتابع . وخيل اليه ان مادلين تشبهه هو ، وراودته الرغبة في أن يسرع الخطا وأن يوجه اليها الحديث . وما كانا بحاجة الى تبادل الحديث فحسبهما أن يسيرا جنبا ويتأملان

المراكب والزوارق وهي تشق طريقها عبر النهر. ها هو ذا قد اشتط به الخيال من جديد. وتعمد أن يتوقف وخطر له أن يعود من حيث أتي، ولكن كان في هذه المطاردة شيء مثير.. شيء غريب طابت له نفسه فاستمر في طريقه.

كثبان من الرمال وتلال من الصخور تتلوها كثبان وتلال. وعلى مرمى البصر تمتد الأرصفة والرافعات وقطرات فوق قضبان ضيقة يعلوها الصدأ، وجزيرة جراندجات في مواجهتها على الضفة الأخرى. لماذا أتت الى هذا المكان البعيد الذى يفتقر الى السحر والجمال الى أين هى ذاهبة؟

كانا وحدهما وكانت هى تمشي من غير أن تتلفت وهى لا تكف عن النظر الى النهر. وكلما تقدم الوقت استولى على فلافيير خوف مبهم. كلا. انها لا تتنزه. ولكن أتراها تهرب من شيء؟ ربما تمر بأزمة من أزمات فقدان الذاكرة. انه رأى مثل هذه الأزمات في عرض الطريق مرارا. ولكن أعراضها لا تنطبق على المرأة التي تسير أمامه. وازداد اقترابا. عبرت مادلين الشارع في هذه اللحظة وقصدت حانة صغيرة للبحارة وجلست في شرفتها. كان بها ثلاث مناضد تحت مظلة سقيفة كبيرة باليه. واختبأ فلافيير خلف بعض البراميل وراح يراقبها في حرص شديد. أما هى فقد أخرجت من حقيبتها ورقة وقلما ومسحت المنضدة بظهر يدها. ولم يظهر صاحب الحانة فراحت تكتب في توتر ظاهر. وخطر لفلافيير أنها ربما تحب رجلا آخر وأن هذا الرجل قد جند في الجيش. ولكنه لم يلبث أن أبعد عنه هذا الخاطر اذا لم يكن هناك من سبب يدعوها الى المجيء الى هذا المكان البعيد لا لشيء سوى أن تكتب له رسالة، في حين أنه كان في مقدورها أن تكتب له ما

تريد وهى في بيتها بعيدة عن أعين الرقباء كان القلم يجرى على الورقة في سرعة وفي غير تردد مما يدل على أنها انتهت من التفكير فيما تريد أن تكتب قبل وصولها وربما كان ذلك أثناء نصف الساعة الذى قضته في الفندق .

كان كل هذا ضرب من الجنون . ولكن أليس من الجائز أنها تكتب لزوجها لكى تقطع علاقتها به . لو صح هذا الأمر لكان فيه التفسير لهذه التصرفات الغريبة . ولكن اذا كان الأمر كذلك فكم ذهبت مادلين لزيارة قبر بولين لاجرلاك ؟

لم يفكر أحد في خدمة مادلين ، ولا ريب أن صاحب الحانة ذهب كغيره من الرجال الى الميدان . طوت مادلين خطابها والصقته في عناية كبيرة ، ثم صفقت بيديها . ولكن احدا لم يلب نداءها . واذ رأت ذلك نهضت واقفة والخطاب في يدها . هل ستعود أدراجها ! كان يبدو عليها التردد وود فلافيير لو استطاع ان يهب كل ماعنده في سبيل أن يقرأ اسم الموسل اليه . هبطت مادلين الى الشاطئ وهى لا تزال في ترددها ومرة بجوار البراميل التي يختبئ خلفها . ومرت أخرى أشم رائحة عطرها . وفي هذه اللحظة . رأى جانبا من وجهها كان جامد القسمات خاليا من كل تعبير فيما عدا الضجر . اطرقت برأسها وقلبت المظروف بين أصابعها وفجأة قطعته الى جزئين ثم الى أربعة ثم الى قطع صغيرة عديدة وأطلقتها في الهواء على عدة دفعات فطارت قصاصات الورق ثم وقعت على الأرض وجرى بعضها على صفحة الماء . أخذت مادلين تتأمل قصاصات الورق السابحة فوق سطح الماء ثم دعكت أصابعها بعضها ببعض كما لو كانت تريد أن تنفض عنها غبارا أو أن تطهرها من لمسة غير مرغوب فيها . وركلت بطرف حذائها

بعض القصاصات التي اندست بين الأعشاب ودفعتها هى الأخرى الى الماء . ثم تقدمت في هدوء خطوة الى الأمام ولم يلبث أن ارتفع بعض رشاش الماء فبلل الرصيف وتطايرت بضع قطرات منه على يدى فلافيير.

ـ مادلين !

تسمر فلافيير في مكانه خلف البراميل يحدق النظر فيما يحدث أمامه دون أن يفهم . لم تعد هناك غير قطعة صغيرة من الورق ، بدت بيضاء وسط العشب الأخضر.

ـ مادلين !

خلع فلافيير سترته وصديريه وأسرع بالقاء نفسه الى الماء . وأحس بالماء يكاد يحطم صدره ومع ذلك فلم يكف عن الصياح في قرارة نفسه : ـ مادلين ! ... مادلين ! .. وبسط ذراعيه وأخذ يتحسس أعماق الماء في ظلام . وبحركة ضاغطة من كعبيه صعد الى سطح الماء ورآها تطفو على ظهرها ، على بعد أمتار منه وقد أصابها الخدر والارتخاء تثاقلت على الموج كالغريقة . غطس فلافيير مرة ثانية ومد يديه يحاول امساكها من خصرها ولكن أصابعه لم تقبض الا على الماء . وراح يكافح التيار بذراعيه وساقيه وقد أحس بأن شيئا يحرق رئتيه وأخذ ينفخ ويدورحول نفسه وعيناه ممتلئتان بالماء والدموع الى أن رأى كتلة سوداء تغوص في بطء. فأرخى جسده واندفع نحوها وتعلقت يداه بقماش ثوبها فجرى بأصابعه كيفما اتفق بحثا عن عنقها . أين هو؟ . وأحاط رأسها في بأحد ذراعيه ورفع يده الأخرى نحو سطح الماء حتي يتسني له أن يرتفع بأسرع ما يمكن . كان جسدها ثقيلا . وكان لابد له من انتزاعه كما لو كان ينتزع شيئا من قاع بئر وأن يجره كله خارج

الماء . ورأى الشاطىء يبتعد بسرعة ، ولم يكن بعيدا عنه بمسافة كبيرة ولكنه أحس بأن قواه تتخلى عنه ابدا يتنفس في مشقة . واخذ نفسا عبثا ثم قطع التيار بضربة منحرفة من يده قاصدا سلما يرسو عند أحد القوارب . واصطدم كتفه بالسلسلة وتعلق بها وترك جسده يدنو من الشاطئ . وعندما أحست قدماه بدرجات السلم التي يغمرها الماء ترك السلسلة وتعلق بالصخر وصعد درجة ثم أخرى وجسد مادلين ملتصق بجسده ، التي بها فوق أعلى درجة ثم حملها من وسطها ومضي بها الى أعلى الرصيف . وهناك سقط على ركبتيه ثم تهالك على جنبه وقد خيل اليه أن الدماء قد فرت من وجهه . فجلس ينظر اليها . كانت في حالة يرثي لها وقد التصق شعرها بوجنتيها وبدت بشرتها أشد بياضا من الثلج . كانت عيناها مفتوحتين وقد راحت تحملق في السماء وهى مستغرقة في الأفكار . كانت تبدو كمن يحاول أن يهتدى الى شيء ضاع منه ، فقال فلافيير :

ـ انك على قيد الحياة .

تحولت العينان اليه وكأنما نظراتها تأتيان من بعيد وتمتمت : لا أدرى ... أن الموت لا يؤلم .

فصاح بها : أيتها الغبية .

وأخذها بين ذراعيه ورفعها وعندما رآها تتهالك فوقه حملها فوق كتفه . لم تكن ثقيلة ، ولم تكن الحانة بعيدة ، ومع ذلك فان ساقيه كانتا ترتعشان من التعب وعندما وصل الى مدخل الحانة أخذ يصيح :

ـ أما من أحد هنا ؟

اوقف مادلين على قدميها أمام مدخل الحانة فترنحت

واصطدمت أسنانها . بينما واصل فلافيير صياحه .

ـ ما من أحد هنا ؟

أخيرا أجابه صوت من الداخل : مهلا . انني قادمة .

وخرجت من المطبخ امرأة تحمل طفلا صغيرا بين ذراعيها .
فخاطبها فلافيير قائلا :

ـ وقع لنا حادث ... هل يمكن أن تعيرينا بعض الثياب القديمة ؟ أى ثياب ... فان ثيابنا مبتلة .

وضحك في انفعال ليدخل الاطمئنان الى قلب المرأة . وأخذ الطفل يبكى فهزته أمه في رفق وهى تقول :

ـ انه يتألم .... فقد بدأت أسنانه تظهر....

وعاد فلافيير يقول في اصرار : أى ثياب يمكن أن نستبدل ثيابنا به . وسوف أطلب سيارة أجرة بعد ذلك .. سأبحث عن سترتي أولا .... فانني تركت حافظتي بها ... اعدى للسيدة كأسا من الكونياك القوى .

كان يحاول خلق جو من الحرارة والالفة ليرغم مادلين على استعادة ثقتها وليدفع المرأة الى الاهتمام بها . وقد شعر هو نفسه بالغبطة والعزم والقوة وصاح يخاطب مادلين :

ـ اجلسي !

اجتاز فلافيير الرصيف المقفز وأخذ يركض حتي وصل الى البراميل فالتقط سترته وصديريه . لم يزد الأمر عن حمام ، وحمام في مثل هذا الجو ليس بالشيء الخطير ولكن بدون هذه الملابس وفي غير هذه الظروف .

أما الشيء الذى ما زال يزعجه ويثير حيرته فهو شيء آخر غير الجهد والخوف من الموت . كان ذلك الشيء هو منظر مادلين وهى

تعبر في هدوء حافة الشاطىء واستسلامها المروع بعد ذلك بدلا من التشبث بالحياة ومحاولة النجاة . بل إنها لم تبد أى خوف من الموت . وهنا أقسم ألا يدعها تغيب عن بصره بعد ذلك لحظة واحدة وأن يدافع عنها ضد نفسها لأنه أصبح واثقا الآن انها ليست في حالة طبيعية . وعاد ركضا ليبعث الدفء الى نفسه فرأى المرأة تصب الكونياك في كأسين وطفلها على ذراعيها .

- اين هى ؟

- في الغرفة الأخرى ... تستبدل ثيابها .

- واين التليفون ؟ ... أريد أن أطلب سيارة أجرة .

- هناك .

وأشارت بذقنها الى التليفون في آخر الصالة وقالت :

- لم أجد لك غير بدلة الشغل هذه ... وأظن أنها تفي بغرضك .

وكررت قولها بعد أن أعاد فلافيير السماعة مكانها فقال :

- لابأس .

وفي هذه اللحظة أقبلت مادلين من المطبخ فاحس بصدمة جديدة ، فقد كانت ترتدى ثوبا بسيطا من القماش المطبوع وتنتعل خفا ولا تلبس جوربا ... بدت وكأنها مادلين أخرى بعيدة عن الغموض والأسرار وقالت :

- اذهب حالا وغير ثيابك ... انني آسفة حقا سأتوخى الحذر في المرة القادمة .

فزمجر يقول : لن تكون هناك مرة أخرى .

كان يتوقع منها شكرا وأن تظهر تأثرا ولكن ها هى ذى تحاول أن تمزح . لبس فلافيير بدلة الشغل وهو يتميز غيظا . وكانت

البدلة كبيرة وواسعة فبدأ شكله فيها مضحكا . ورأى المرأتين تتهامسان في قاعة الحانة وقد ساد التفاهم بينهما في حين كان هو يحاول العثور على كمى البدلة ولاحظ محنقا أن هذه كانت ملوثة بالشحم وقد حال لونها الأزرق . اتجه بتفكيره نحو جيفين وقال محدثا نفسه .. « لسوف يدفع الثمن مضاعفا وعليه أن يكلف شخصا غيرى بمراقبة زوجته اذا كان يريد ذلك » هنا سمع صوت سيارة فيمم شطر الباب : وفتحه وهو يلتفت نحو مادلين قائلا :

ـ هل أنت مستعدة ؟

كانت مادلين تداعب الطفل بين ذراعيها فهمست : « لا ترفع صوتك هكذا لئلا يصحو » .

ناولت الطفل لامه في رفق ، وشعر فلافيير بالغيظ لهذا الاهتمام الزائد وأوشك أن يحتد . ولكنه تمالك نفسه تناول الثياب المبتلة ثم وضع ورقة مالية تحت الكأس الذى لم يشربه وخرج . لحقت به مادلين وهى تجرى فقال في برود :

ـ الى أين يجب أن أذهب بك ؟

صعدت الى العربة وقالت : اذهب الى بيتك فأنني اعتقد أنك تتلهف الى ارتداء ثياب لائقة أما أنا فلا يهمني ذلك .

ـ ولكن اين تقيمين ؟

ـ في شارع كليبر... أنا مدام جيفين وزوجى يشتغل في الانشاءات البحرية .

ـ وأما أنا فإني أعمل محاميا .

وخاطب السائق قائلا : اذهب بنا الى شارع موبيج عند التقائه بشارع لامارتين .

وعادت مادلين تقول : لا ريب انك حاقد على .. لا أدرى

حقا مالذى حدث ؟

فقال فلافيير: أما أنا فإني أعلم. لقد حاولت الانتحار في النهر.

وانتظر قليلا وهو يرقب ردا أو احتجاجا ثم استطرد :

ـ في مقدورك ان تثق بي .. أنني على استعداد لأن أفهم .. هل تشعرين بأسي .. أو لعلك أصبت بخيبة أمل . ؟

فأجابت في صوت خافت : كلا . ليس الأمر كما تظن .

ومن جديد ، بدت له تلك المرأة المجهولة التي رآها في المسرح .. المرأة ذات المروحة .. مادلين الأخرى التي انحنت بالأمس فوق قبر مهجور .. وقالت :

ـ انني ألقيت بنفسي في الماء حقا . ولكنني أقسم لك أنني لا أدرى لماذا فعلت ذلك ؟

ـ ولكن الرسالة ؟

احمر وجه مادلين وأجابت : كانت لزوجى .. ولكن الأمر الذى كنت أحاول أن أشرحه له كان غير عادى لدرجة أنني آثرت ..

وحولت عينيها الى فلافيير وألقت بيدها على ذراعه قائلة :

ـ هل تعتقد أن في الامكان أن يعيش المرء من جديد ؟ .. أقصد أن أقول .. أن يموت ثم .. يولد من جديد في صورة شخص آخر؟ .. أرأيت .. انك لا تجرؤ على الرد على .. وتحسبني مجنونة .

ـ ولكن ؟

ولكنني مع ذلك لست مجنونة .. كلا .. كل ما في الأمر أنه يخيل لى أن ماضي يمتد بعيدا جدا .

هناك شيء آخر قبل ذكريات الطفولة .. شيء آخر كما لو كانت هناك حياة أخرى كنت أحياها وأراها تعود الى ذاكرتي .. لا أدرى لماذا أقول لك ذلك .

فتمتم فلافيير : استمرى ... استمرى في قصتك .

ـ انني أرى أشياء لم يسبق لى أن رأيتها قبل ذلك .. أرى وجوها أخرى لم يعد لها وجود الا في مخيلتي أنا ... ويخيل إليّ أحيانا أنني امرأة عجوز .. عجوز جدا .

وكان لها صوت موسيقي عميق ، واصغى فلافيير اليها في سكون وهي تستطرد !

لابد أنني مريضة ... ولكن اذا صح ذلك لما كانت ذكرياتي بمثل هذا الوضوح ولبدت مضطربة متنافرة .

ـ كانت محاولتك الانتحار لحظات لدافع مفاجيء أم هو قرار اتخذته بعد طول امعان وتفكير؟

ـ بل هو قرار كما تقول .... مع ذلك فليس الامر واضحا في ذهني ... اشعر بأنني غريبة ويزداد هذا الشعور شيئا فشيئا وينتابني أحساس بان حياتي الحقيقية خلفي ... وعندئذ أقول لنفسي لم الاستمرار ... ان الموت بالنسبة لك أنت وبالنسبة للعالم أجمع هو نقيض الحياة أما بالنسبة لى أنا ...

فقال فلافيير : لا تتكلمى هكذا ؟ .. أرجوك فكرى في زوجك .

ـ مسكين بول ... لو أنه عرف ....

ـ لا يجب أن يعرف شيئا ما ... سوف يبقي هذا الأمر سرا بيننا .

لم يملك فلافيير الا أن يضمن صوته نبرات رقيقة فابتسمت

فجأة في نشاط يثير الحيرة وقالت :

ـ سر المهنة ؟ .. انني مطمئنة الآن ... من حسن حظى أن تصادف مرورك بهذه الناحية في تلك اللحظة .

ـ هذا من حسن حظك حقا . كنت ذاهبا للقاء مقاول يقع مكتبه على مقربه ، وكان الجو جميلا فلم استقل سيارتي .

فتمتمت : لولا ذلك لكنت الآن في عداد الموتي .

وقف التاكسي في هذه اللحظة فقال فلافيير : ها نحن قد وصلنا . أرجو أن لا تعيرى اضطراب مسكني اهتماما فانني اعزب ، ثم أنني مشغول ... بل مشغول جدا .

لم يكن هناك أحد في مدخل البيت ، وكذلك لم يكن هناك أحد في السلم ، وقد أطمأن فلافيير لذلك ، فقد كان يضايقه أن يراه أحد في هذه الثياب . وسمع التليفون يدق وهو يفتح الباب ويفسح الطريق لمادلين فقال :

ـ لا ريب أنه أحد عملائي . أجلسي ! سأفرغ منه في دقيقة واحدة .

وأسرع الى مكتبه وقال : ألو ...

رد عليه صوت جيفين قائلا : لقد طلبتك مرتين قبل الآن .. اني تذكرت فجأة شيئا له صلة بانتحار بولين ... انها القت بنفسها في الماء ... لا أدرى ان كان هذا الأمر يفيدك ولكنني آثرت ان اذكره لك ... وانت هل اهتديت الى شيء ؟

فأجابه فلافيير : ـ سأعود فيما بعد فانني الآن لست وحدى .

الفصل الرابع

تأمل فلافيير دفتر مذكراته في شيء من التحدى : ٦ مايو ، ثلاث قضايا ... قضيتا ميراث وقضية طلاق . لقد سئم هذه المهنة السخيفة ، ومع ذلك ليس في وسعه أن يغلق الباب وان يضع فوقه لافته عليها هذه الكلمات : (مغلق بسبب التجنيد) أو (بسبب الموت) أو بأى سبب آخر . سيدق جرس التليفون طوال النهار من جديد ، وسيطلب منه عميل أورليان أن يذهب للقائه مرة أخرى ، وسيضطر الى اظهار الورقة والى تدوين مذكرات جديدة . وسيطلبه جيفين في آخر النهار أو ربما يأتي لزيارته . ان جيفين هذا أصبح كثير المطالب ولابد له أن يسرد عليه كل شيء حتي أتفه التفاصيل . وجلس الى مكتبه وفتح ملف جيفين : ٢٧ ابريل نزهة في الغابة .. ٢٨ ابريل : قضينا بعد الظهر في بارامونت ... ٢٩ ابريل : تنزهنا في رامبوييه وادى وشيفريز ... ٣٠ ابريل ، مارينيان وبعد ذلك الشاى في شرفة جاليرى لافاييت . توعك بسيط بسبب الفراغ ... أول مايو نزهة في فرساى . أنها تجيد القيادة مع أن السيمكا ليست سهلة ٢٠ مايو : غابة فونتنبلو .... ٣ مايو لم أرها ... ٤ مايو : نزهة قصيرة في حديقة اللوكسمبورج ... ٥ مايو نزهة طويلة في بوسي ورأينا كاتدرائية شارتر على بعد .

وفي ٦ مايو كان ينبغى أن يكتبه : أحبها ولا أستطيع البعد عنها ، لأن المسألة الآن أصبحت مسألة حب ... حب كبير يحترق في صمت كما تحترق النار في منجم مهجور . وكان يبدو أن مادلين لا تشك في شيء . كان بالنسبة لها صديق لا أكثر ... رفيق

ظريف يمكن تبادل الحديث معه في حرية تامة ولم تكن تفكر طبعا في أن تقدمه الى بول . وحاول فلافيير أن يقوم بدور المحامى الميسور الحال الذى يعمل ليشغل أوقات فراغه والذى يسره أن يساعد امرأة جميلة لينسيها ضجرها أما حادث كوربيفوا فقد طواه النسيان . كان الأثر الوحيد له هو انه منح فلافيير حقا على مادلين . كان ترحيبها به يذكره بانقاذه لها من الموت ، وكانت تعامله في اهتمام ورقة واعتبار ، كما لو كان قريبا لها أو وصيا عليها . ولم يكن من اللائق أن ينطق بكلمة حب فقد كان هناك جيفين ، وكان هذا هو السبب في أن فلافيير كان يرى من الشهامة أن يقدم لجيفين تقريرا دقيقا كل ليلة . وكان هذا يصغى اليه في صمت وهو مقطب الجبين ثم يتحدث عن مرض مادلين الغريب .

اطبق فلافيير الملف ومد ساقيه وضم أصابعه .. مرض مادلين ؟ كان يلقي على نفسه هذا السؤال عشرين مرة كل يوم . وكان يفحص تصرفات مادلين ويستعرض كلماتها كلمة كلمة ينسي عدد المرات ويقارن بين كل منها والأخرى في اهتمام جنوني . لم تكن مادلين مريضة ، وفي نفس الوقت لم تكن طبيعية أبدا ، كانت تحب الحياة والحركة وصخب الجمهور . كانت شديدة المرح ، بل أنها كانت تتدفق حيوية في أغلب الاحيان وكانت حاضرة الذهن الى حد بعيد ... كانت أكثر النساء مرحا وسرورا في الظاهر . كان هذا هو الجانب المضيء المشرق في شخصيتها . ولكن كان هناك الجانب الآخر ، الجانب المظلم الحافل بالاسرار . كانت باردة ولكنها لم تكن انانية ... تقدر النتائج والعواقب ... باردة في أعماقها عديمة الارادة عاجزة عن الافتتان ، وكان جيفين على حق لما أن تفقد الاهتمام بها والتسرية عنها وحملها على التشبث

بشاطىء الحياة ، حتي تستغرق في واد آخر بعيد . لم يكن استغراقها من أحلام اليقظة ولم يكن تأملا ولا حزنا بل كان بالأحرى تغييرا رقيقا كما لو أن جزءا من روحها يتسرب خارجها ويتبخر في الفضاء ، وقد رآها فلافيير مرارا كثيرة تفلت منه هكذا في صمت وهى قريبة منه وتتوارى في حلم كوسيلة تخضع لارادة خفية قوية .

وسألها : ـ هل هناك ما يشغلك ؟

عادت مادلين الى نفسها في بطء ، وانفعل وجهها وبدا له كأنها تحاول أن تسترد السيطرة على عضلاتها وأعصابها ، وترددت ابتسامة فوق شفتيها ثم حولت رأسها قائلة :

ـ كلا . انني على مايرام .

وطمأنته عيناها . ربما ينتهى بها الأمر ذات يوم الى الاعتراف بما يعتمل في نفسها وعما تحس به . والى أن يحين ذلك الوقت تحاشي فلافيير أن يسلمها قيادة السيارة . كانت تقود في براعة تامة ولكنها لم تكن تخلو من التهور ترى هل كان ذلك استسلاما منها للقدر ؟ كلا . أن هذه الكلمة لم تكن هى الكلمة الصحيحة ، وقد بحث فلافيير عبثا عن كلمة أخرى يحدد بها احساسه ... لم تكن تناضل وتكافح بل كانت راضية مستسلمة . وتذكر مرضه القديم والهبوط الذى كان يشعر به .. حسنا كان الأمر شبيها ... كانت أقل حركة منه ترهقه ، ولو أنه رأى في ذلك الوقت ورقة مالية فئة الالف فرنك على الأرض لما كلف نفسه بأن يلتقطها ثمة خلل في أعصاب مادلين .... كان واثقا انها اذا وجدت نفسها أمام عقبة فلن تحاول أن تتصرف أو أن تحاول المقاومة . انها لم تكافح في كوربيفوا ... ثم هناك نقطة أخرى

غريبة . فهى لم تقترح عليه نزهة معينة في أى وقت من الأوقات .
كان يقول نفس الرد . ومع ذلك فقد كانت تضحك بعد خمس دقائق ... كان يبدو انها تجد متعة في ذلك وكانت وجنتاها تصطبغان بلون الأرجوان ، ثم تضغط على ذراع فلافيير ، فكان يحس بقرب جسدها الذى يتدفق حياة فلم يكن يملك نفسه من أن يهمس في أذنها أحيانا فيقول :

ـ انك رائعة .

فترفع عينيها اليه وتسأله : ـ أهذا صحيح ؟

وكان يحس دائما بنفس الانقباض عندما ينظر الى حدقتيها الزرقاوين الصافيتين اللتين يبدو أن نور النهار يزعجها . كانت تتعب سريعا وتجوع دائما . كان لابد أن تأكل في الساعة الرابعة ... فطائر وشاى ومربي ... ولم يكن فلافيير يحب اصطحابها كثيرا الى محلات الحلوى أو قاعات الشاى ، ولهذا السبب كان يذهب بها الى الريف كثيرا ، وعندما كان يأكل الفطير. كان يحس بأنه مذنب أكبر الذنب بسبب قيود الحرب وبسبب اولئك البائعات اللاتي جند ازواجهن في مكان ما بين بحر الشمال والفوج . ولكنه كان يعلم أن مادلين بحاجة الى هذا الطعام بالذات لكى تقهر ذلك الفراغ والضياع والظلام الذى توشك دائما أن تهوى فيه .

واعترف لها يوم فقال . ـ انك تجعلينني أفكر في فرجيل .

ـ ولماذا ؟

ـ هل تذكرين أن اينيه راح ينثر الدم حوله عندما هبط الى بلوتون ، وأن أشباح الموتي كانت تسرع فتشم هذا الدم وتتغذى منه وتكتسب لمدة قليلة كثافة ما فتتكلم وتتملكها الحسرة

على ما يتمتع به الأحياء من أضواء .

ـ نعم ، ولكنني لا أفهم ...

.فدفع نحوها الطبق المملوء بالفطائر وقال : ـ كلي ... هذا كلّه ... يبدو لى أنك تشبهين تلك الأرواح وانك بحاجة الى شيء من الكثافة ، ومن الواقعية .. كلي ، أى صغيرتي أورويديس .

فابتسمت وقالت ولا يزال بعض الفتات في فمها :

أنك تزعجني بأساطيرك .

وبعد لحظة طويلة وضعت الفنجان على المائدة وقالت :

ـ أوريديس ... ما أجمل هذه الكلمة ! ... انك انتزعتني حقا من الجحيم .

ومنذ ذلك اليوم راح يدعوها أوريديس بدافع المزاح ، وما كان ليجرؤ أن يدعوها مادلين ، بسبب جيفين . ثم أن مادلين كانت المرأة المتزوجة ... زوجة الآخر . أما أوريديس فكانت له وحده . لقد ضمها بين ذراعيه والماء يتساقط منها وقد أغمضت عينيها وشبح الموت يرفرف فوق وجنتيها كان يشعر بنفسه سخيفا . فليكن . كان يعيش في عذاب مستمر وفي خضم من المشاعر المؤلمة ، ولكنه لم يكن يعرف أبدا في قرارة نفسه هذه الراحة التامة وهذه الغبطة المفرطة حيث ينطوى ماضيه القريب وتتبدد مخاوفه . منذ وقت طويل وهو ينتظر هذه المرأة الساحرة . منذ أن بلغ الثالثة عشرة من عمره . منذ ذلك الوقت الذى كان يهيم فيه في أرض الخيال ... أرض الأشباح السوداء والحوريات .

ودق جرس التليفون فتناول فلافيير السماعة في لهفة وسرعة ، فقد كان يعلم أنها هى التي تطلبه :

ـ آلو ... أهى أنت ؟ ... هل لديك ما يشغلك ؟ ... حقا أنني

محظوظ ، نعم لدى عمل كثير ولكن ليس منه ما هو عاجل . هل يسرك هذا ؟ ... مؤكد ... مفهوم اذن ... كل ما يهمني هو أن أعود في الساعة الخامسة .. لنتكلم بصراحة .. قررى أنت ... أنت ظريفة ولكنك تضايقينني ؟ .. ربما . ليس هذا بالأمر المألوف ... كلا . لم ينقلوا كل شيء ... مازالت هناك أشياء كثيرة ... سبب آخر يحدونا الى أن نسرع ... اتفقنا اذن ... شكرا . الى الملتقي .

وأعاد السماعة مكانها في هدوء كما كان الصدى الأخير للصوت الحبيب مازال يتردد في السماعة . ماذا يحمل هذا اليوم ؟ . لا شيء أكثر من الأيام السابقة من غير شك . كان الموقف يبدو بغير مخرج . لن تشفي مادلين أبدا ولا داعى لأن يخدع نفسه . لعلها أصبحت تفكر الآن أقل في الانتحار بعد أن بدأ يهتم بها ، ولكن فكرة الانتحار كانت لا تزال تلح عليها وتلازمها في أعماقها . ماذا يقول لجيفين ؟ هل يبوح لها بكل شيء ؟ ... أحس فلافيير بأنه حبيس في دائرة كلما حاول منها فرارا ازدادت حوله التفافا . لقد اجهده التفكير لدرجة أصبح معها عاجزا عن التوصل الى أى قرار .

أخذ فلافيير قبعته وخرج . سوف يأتي العملاء فيما بعد وحتي اذا لم يأتوا فلا أهمية لذلك فان باريس سوف تتعرض للمدافع والقنابل ، وسوف تمتد الحرب فترة ما لابد له اثناءها من أن يجند بدوره ، أن المستقبل يبدو له مشكوك فيه بطريقة مروعة . لا شيء له معني غير الحب والحياة اليوم وليكن في الغد ما يكون . بحث بالغريزة عن الشوارع التي تحف بها الأشجار والضوضاء وصخب المارة . كان هذا الصخب يجعله ينسي مادلين بعض

الشيء . وادرك وهو يسير الهويني في ميدان الأوبرا أن للمرأة الشابة سلطانا غريبا عليه . كان التفكير فيها يستنفذ كل قواه تقريبا . كان يقوم الى جوارها لا بدور واهب الدم فحسب وانما بدور واهب الروح أيضا . والدليل على ذلك أنه كان كلما وجد نفسه وحده شعر بحاجة الى الاندماج في جموع البشر لكى يستعيد قواه الضائعة ، ويكف عن التفكير. كان يحلم من وقت لآخر بأن الحظ سيواتيه فتطول به الحياة ، وكان يطلق العنان لأحلامه في بعض الأحيان ... فتصور حيفين وقد مات ومادلين وقد غدت حرة .. كان يروق له أن يتوهم المستحيل وأن يروى لنفسه قصصا وهمية فلا يلبث أن يشعر بالإنطلاق مثله كمثل مدخن الأفيون الذى يطلق لأحلامه العنان .. ترك فلافيير لأقدامه حرية الحركة فأخذت تدفعه في بطء وسط جماهير المارة وهو يحاول أن يتجنب التفكير وعندما وصل أمام محل لانسل توقف . ولم يكن يرغب في شراء شيء ولكن يحلو له أن يتأمل المجوهرات المعروضة وبريق الذهب فوق المخمل الداكن . وتذكر فجأة أن مادلين كسرت قداحتها ورأى قداحات فوق رف صغير من الزجاج وبجوارها علبا للسجاير من نوع ثمين ... كلا ، أنها لن تشعر بأى استياء . وبلا تردد دخل وانتقي قداحة صغيرة من الذهب وعلبة سجاير من الجلد الروسي . ولأول مرة أحس بإرتياح لأنه انفق شيئا . ثم كتب على قطعة من الورق المقوى (الى أوريديس التي عادت الى الحياة) ووضعها داخل العلبة . سيعطيها اللفافة الصغيرة في المتحف أو بعد ذلك بقليل بعد أن يفرغا من تناول وجبتها الخفيفة وقبل أن يفترقا . وبدا له اليوم جميلا بعد ذلك . وابتسم وهو يتحسس بأصابعه اللفافة المربوطة بشريط أزرق ... يالمادلين الحبيبة ! الحبيبة !

وفي الساعة الثانية كان في انتظارها في ميدان النجمة كانت تأتي دائما في الموعد المضروب لا تتأخر عنه دقيقة واحدة وقال :

ـ عجبا ... انك ترتدين السواد اليوم .

ـ فأجابت : ـ انني أحب اللون الأسود كثيرا .. لو أصغيت الى نفسي لما لبست غيره .

ـ لماذا ؟ .. ان اللون الأسود كئيب .

ـ ابدا . بل هو على العكس من ذلك يضفي أهمية على ما نفكر فيه ... ويضطرنا الى أن نكون أكثر اتزانا ورصانة .

ـ وماذا يكون الحال اذا لبست الأزرق أو الأخضر؟

ـ لا أدرى . يخيل إليّ عندئذ أنني إما أن أكون نهراً أو شجرة ... عندما كنت صغيرة كنت أعتقد أن الألوان تملك سلطانا سحريا ولهذا أردت أن أرسم .

وأخذت ذراعه بتلك اللفافة وعدم التحفظ اللذين يجعلانه يفيض حنانا فقال :

ـ أنا أيضا حاولت أن أرسم ، ولكنني لا أجيد الرسم .

ـ ماذا في ذلك ؟ .. المهم هو اللون .

ـ وددت لو أرى لوحاتك !

ـ أوه ... انها ليست شيئا كبيرا ... أنها لا تشبه شيئا ما ... إنْ هى إلا أحلام ... هل ... هل تحلم بالألوان ؟

ـ كلا ... انني لا أرى اللون الرمادى ... تماما كما في السينما .

ـ اذن فأنت لا تستطيع أن تفهم ... أنت أعمى .

وضغطت على ذراعه لتريه أنها تمزح معه وقالت :

ـ هذا أحسن بكثير مما يسمونه الواقع . تصور ـ اذا استطعت ـ ألوانا تتلامس وتتآكل وتتشارب وتدخل كيانك كلية

إن المرء يصبح شبيها بتلك الحشرات التي لا يمكن التميز بينهما وبين الأوراق التي تحملها ، وبالأسماك التي تشبه المرجان ... كل ليلة أحلم بالبلد الآخر.

فهمس : ـ أنت أيضا ؟

ودار بميدان الكونكورد وهما متلاصقان الى أحد من المارة . وأوشك فلافيير أن ينسي نفسه وهو مفتون برقة كلماتها ولكن بقي جزء من تفكيره ، يقظا متراقبا لا تغيب عنه المعضلة التي تشغله . وقال :

ـ عندما كنت طفلا كانت تلح على فكرة البلد المجهول . بل أنني أستطيع أن أريك على الخريطة اين تبدأ .

ـ انه ليس نفس البلد .

أوه . كلا ، على أن البلد مملوء بالظلمات أما بلدك فمضيء ومع ذلك فإنني أعلم جيدا أنهما يلقيان .

ـ وأنت لم تعد تؤمن به ؟

تردد فلافيير ولكنها نظرت اليه في ثقة كبيرة . كان يبدو أنها تعلق أهمية كبيرة على رده . قال :

ـ بل مازلت أؤمن به .. خصوصا منذ أن عرفتك . استأنفا نزهتهما لحظة في صمت . كان وقع خطواتهما المتزنة يبسط بينهما أفكار مشتركة . واجتازا الميدان الكبير وصعدا سلما قصيرا صغيرا معتما وسرعان ما وجدوا نفسيهما في جو رطب لطيف كجو لوبين آلهة قدماء المصريين .

وعادت تقول : ـ أما أنا فلم أعد أؤمن به ... أعلم أنه موجود ، وأنه حقيقي كبلدنا هذا ولكن لا ينبغي أن أذكر ذلك .

وسارا بين صفين من التماثيل الضخمة التي راحت تنظر اليهما

بأعين فارغة . وكانت هناك توابيت مختلفة وكتل من الصخر عليها أحرف غريبة غير مفهومة ورؤوس حيوانات عابسة خدشها الزمن . وقالت :

ـ سبق أن مررت هنا وأنا ممسكة بذراع رجل .. كان ذلك منذ وقت طويل ... وكان يشبهك فيما عدا أن له عارضين .

ـ هذا وهم بلا ريب ... وهم سبق الرؤية ، وهو امر مألوف .

ـ أوه ، كلا . يمكنني أن أقدم لك تفاصيل مثيرة ... أنني أرى أحيانا مدينة صغيرة لا أعرف إسمها ولا أدرى حتي اذا كانت موجودة في فرنسا أو في أى مكان آخر ومع ذلك فإنني أتنزه فيها في الحلم كما لو كنت قد أقمت فيها قبل ذلك ... وفيها نهر يخترقها . وعلى اليمين ، على الشاطىء ، أرى قوس نصر ... وإذا تقدمت في شارع محفوف بالأشجار الضخمة تجد على اليمين ميادين للألعاب الرياضية .. وبعض القباب ... ودرجات مهدمة . وفي آخر الميادين تقع ثلاث شجرات من شجر الحور وبجوارها قطيع من الغنم .

ـ فصاح فلافير : ـ ولكنني أعرف هذه المدينة ... أنها مدينة سانت . أما النهر فهو نهر شارانت .

ـ هذا جائز .

ـ ولكن الميادين لم يعد لها وجود ، وكذلك الأشجار .

ـ كانت موجودة ، في عهدى ، والينبوع الصغير ، هل مازال موجودا ؟ كانت الفتيات تذهب اليه فتلتقي فيه الدبابيس وهن يتمنين أن يتزوجن في نفس الطعام .

ـ انه ينبوع سانت استيل .

ـ والكنيسة خلف الساحة الكبرى ... كنيسة عالية لها برج عال به جرس قديم جدا ... لطالما أحببت هذه الكنائس العتيقة .

ـ سانت ايتروب .

ـ أرأيت إذن ؟

ومرا في بطء بالخرائب الغاضبة التي تفوح منها رائحة الشموع . كانا يلتقيان من وقت لآخر بزائر مدقق متفحص ، ولكن لم يكن يهمهما غير نفسيهما وهما يمران بتماثيل الأسود وأبي الهول والثيران المجنحة .

وقالت مادلين : ـ ما اسم تلك المدينة ؟

ـ سانت ... وهي تقع على مقربة من رويان .

ـ لا ريب أنني عشت فيها ... فيما سبق .

ـ فيما سبق ... عندما كنت طفلة صغيرة ؟

فقالت في هدوء : ـ كلا طبعا .. بل في حياتي الأخرى ..

لم ينطق فلافيير .. ايقظت فيه كلماتها أصداءاً كثيرة . وسألها :

ـ اين ولدت ؟

ـ في الأدرين .. على مقربة من الحدود .. لم تنقطع الحرب عندنا أبدا .. وأنت ؟

ـ ربتني جدتي في بلدة سومور .

وقالت مادلين : ـ أنني ابنة وحيدة . كانت أمى مريضة في أغلب الأوقات أما أبي فكان يقضي كل وقته في المصنع . لم أتمتع بطفولة مرحة .

ودلفا الى صالة تزين جدرانها اللوحات .. وكانت إطاراتها تلمع وتتلألأ كأنها المرايا أحيانا لسادة ذوى وجوه هزيلة وأخرى لضباط يرتدون ثيابا ثمينة ويد كل منهم ترتكز على مقبض سيف ، وجواده خلفه على رجليه الخلفيتين .

وهمس فلافيير :

- عندما كنت صغيرة؟ .. أما كانت لك أحلامك .. وهواجسك .

- كلا . لم أكن غير طفلة وحيدة تخلد الى الصمت .

- إذن كيف حدث هذا؟

- فجأة ، ومن مدة وجيزة فقط . أنت تعلم . إحساس يشعر به الإنسان عندما يستيقظ ولا يعرف الغرفة التي هو فيه .

فقال فلافيير : - نعم ... أود أن ألقي عليك سؤالاً ولكنني أخشي أن أغضبك .

فقالت مادلين في تفكير ليس لى أسرار .

وتوقفت مادلين ورفعت عينيها اليه .. العينان اللتان كان يبدوا أنهما تتضرعان وتتوسلان دائما وتمتمت :

- إنك لم تفهم .

- أجيبني ..

وقفت جماعة صغيرة من الزوار أمام إحدى اللوحات ورأى فلافيير صليبا وجسدا ورأسه تميل فوق الكتف وخيطا من الدم فوق الثدى الأيسر وفوق بقليل وجه المرأة ينظر الى السماء .

ولم تكن مادلين في هذه اللحظة تثقل على ذراعه . إلا كما لو يثقل الشيخ شبحا وقالت ..

- كلا لا داعى للإصرار ..

- أرجوا أن تردى على .. لمصلحتك ومصلحتي .

- روجر .. أرجوك .

لم ترفع صوتها قليلا ومع ذلك فقد اضطرب فلافيير. ورفع ذراعه حول كتفي مادلين وضمها اليه قائلا :

- لم تفهمى أنني أحبك وأنني لا أريد أن أفقدك .

أخذا يقعدان كتمثالين آليين بين لوحات من رسم بيتا وجوتا وضغطت على يده قليلا فقال :
- أنك تخيفني ولكنني بحاجة الى .. لعلني بحاجة الى أن أشعر بالخوف لأزدرى هذه الحياة التي أحياها .
لو أنني كنت واثقا فقط انك غير مخطئة .
واجتازا القاعات المقفرة بحثا عن باب للخروج ولم تتخل عن ذراعه . بل راحت تتشبث بها أكثر من ذى قبل . وهبطا بعض الدرجات وألفيا نفسيهما لاهثين فوق أرض خضراء ينيرها شعاع من قوس قزح وتوقف فلافيير وقال :
- أنني لأتساءل إذا لم يكن بنا مس من الجنون هل تذكرين كلماتي منذ لحظة ؟
فأجابته : - نعم .
- إنني أعترف لك بأنني أحبك .. فهل سمعت جيدا ؟
- نعم لو أعدت عليك هذا القول وقلت لك أنني أحبك أفلا تغضبين ؟
- كلا ..
- هذا غريب .. هلمى بنا نمشي قليلا فلدى أشياء كثيرة أريد أن أفضي اليك ..
- كلا .. إنني متعبة . سأعود الى البيت .
كانت ممتقعة اللون ، تبدو خائفة . فقال ..
- سأطلب سيارة أجرة .. ولكن أرجو أن تقبلى هذه الهدية قبل ذلك ..
- ما هى ؟
- افتحى .. افتحى ..

وفكت العقدة ، وبسط الورقة . ولم تلبث أن أمسكت بالقداحة وعلبة السجاير . وهزت رأسها ثم فتحت العلبة وقرأت الكلمات الثلاث وتمتمت :

ـ يا صديقي المسكين !

وجذبها نحو شارع ريفولى وهو يقول : ـ لا تشكرين . أعلم أنك كنت تريدين قداحة . هل نلتقي غدا ؟

أومات برأسها موافقة فقال : ـ حسنا . سوف نذهب الى الريف . كلا ، كلا ، لا تتكلمى .. أتركيني على هذه الذكرى .. ها هى سيارة أجرة يا عزيزتي أوريديس .. انك لا تعرفين مدى السعادة التي منحتني إياها .

وأخذا يدها ولثم أصابعها التي يغطيها القفاز .. وقال وهو يغلق الباب خلفها :

ـ لا تنظرى الى الخلف .

كان متعبا وهادئا كالمرة السابقة ، عندما ركض طول النهار على شاطىء اللوار .

الفصل الخامس

ظل فلافيير ينتظر منها مكالمة تليفونية طوال الضحى ، وكان انتظاره عبثا . وما بلغت الساعة الثانية حتي أسرع الى مكانهما المألوف بميدان النجمة . ولكنه لم يجدها في انتظاره . وحاول الاتصال بجيفين فقيل له أنه مسافر الى الهافر وأنه لن يعود قبل الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى .

قضي فلافيير يوما بغيضا لم يغمض له فيه جفن . وأقبل الفجر فألفاه واقفا يدور في أرجاء مكتبه تلح عليه أفكار وصور كانت تهد كيانه في بطء .. كلا .. لم يقع شيء لمادلين .. هذا محال .. ومع ذلك .. ضم قبضته وحاول أن يتغلب على مخاوفه .. أبدا .. ما كان ينبغي أن يدلى لمادلينا الإعتراف لقد اشتركا كلاهما في خداع جيفين .. من يدرى الى أى مدى قد يدفعها تبكيت الضمير وهى بتلك العصبية المتقلبة .. كره نفسه كل الكراهيه لأنه لم يجد ما يلوم جيفين عليه ، فقد وثق به هذا الأخير وعهد بمادلين اليه ليحفظها له . كان لابد له أن يضع نهاية لهذه القصة السخيفة .. وفورا .. ولكن كلما تصور الحياة من غير مادلين شعر بانقباض شديد فيفتح فمه ليتنفس ويعتمد على ركن مكتبه أو على مسند مقعد حتي لا يقع أخذ يلعن القدر الساخر الذى شاء له أن يدبر الأمور بهذه الغلظة والقسوة .

سوف يعيش منفيا دائما اذن .. حتي الحرب لم ترغب فيه .. جلس فوق المقعد الذى كان يجلس فوقه جيفين في أول زيارة له . ألا يبالغ في مدى شقائه ؟ .. حب ؟ .. ان الحب الحقيقي لا ينمو في أسبوعين .. وضع ذقنه بين يديه وراح يفكر في موقفه جيدا .. ماذا يعرف هو عن الحب ؟ لم يسبق له أن أحب

قط .. أنه اشتهى بطبيعة الحال كل مظاهر السعادة كالمسكين الذى يقف أمام واجهات المحال يشتهى ما ينقصه وبينه وبين الأشياء التي يشتهيها عقبة كئود وعندما عين مفتشا للشرطة ره إحساس بأنهم عهدوا إليه بالدفاع عن هذه الدنيا البراقة السعيدة المزهوة .. كانت دنياه هو .. أما مادلين فلا .. لم يكن له الحق .. ليس له الحق في أن يتنكب الطريق القويم ويندمج مع اللصوص .. كلا .. ان هذا لن يكون .. سوف يتخلى عن مادلين .. انه جبان .. مسكين .. يستولى عليه الجبن هكذا عند أول خطوة في حين أن مادلين ربما توشك أن تحبه .

وقال في صوت مرتفع :

ـ كفي .. كفي .. دعوني في سلام .

صنع لنفسه فنجانا من القهوة القوية لينبه حواسه . ومشي لحظة من المطبخ الى المكتب ومن المكتب الى المطبخ .. أن هذا الألم الخفي الذى يسكن في جسده وفي ذهنه ويحول بينه وبين التنفس والتفكير برزانة كعادته .. هل هو الحب الحقيقي .. ؟ أحس بشيء من العجز وهو يهذى هكذا على الرغم مما يشعر به من اعياء وارهاق . كيف استطاع طوال هذا الوقت استقبال العملاء الذين يتقاطرون على مكتبه وأن يفحص كل هذه الملفات وأن يستمع الى هذه الاعترافات من غير أن يفهم شيئا .. كيف استطاع أن يطبق عينيه من الحقيقة . انه كان يهز كتفيه اذا ما صاح عميل دامع العينين قائلا :

(ولكنني أحبها) وكان يرد عليه فيقول (تحبها ؟ .. انك تثير ضحكى بهذه الكلمة فما الحب الا حلم من أحلام الطفولة.. انه شيء جميل طاهر ولكنه صعب المنال .. انه شيء والمضاجعة

شيء آخر) ..آه .. ما كان أغباني !

اقبلت الساعة الثامنة وهو لايزال مرتديا منامته ومنتعلا خفيه . وكان شعره مشعثا وعيناه تبرقان الى حد كبير ولم يكن قد عقد النية على شيء بعد . ولم يكن باستطاعته الاتصال بمادلين تليفونيا فهي قد منعته عن ذلك بسبب الخدم ، ثم أنها الآن قد لا تريد أن تراه بعد اليوم .. بل ربما تشعر بالخوف هي الأخرى .

وحلق ذقنه وهو شارد اللب ثم ارتدى ثيابه وأدرك انه يتعين عليه أن يرى جيفين بأسرع ما يمكن فقد كان بحاجة الى أن يكون صادقا مع نفسه ثم أنه رأى في شيء من الدهاء أن مشكلته خادعة وأنه يستطيع أن يقدم لجيفين كل الضمانات وهو يرافق مادلين في نفس الوقت .. وتملكته عندئذ غبطة أخذت تبدد الضباب الذى يكافحه شيئا فشيئا . وأبصر أشعة الشمس تدخل من خلال مصراعى الشباك الذى نسي أن يفتحه فأطفأ مصباح الكهرباء وترك نور النهار يدخل ويملأ مكتبه . وسرعان ما استعاد ثقته لا لشيء الا لأن الطقس كان صحوا جميلا ولأن الحرب لم تشتد بعد . وخرج تاركا المفتاح تحت ممسحة الاقدام للخادمة التي تأتي لتنظيف المكتب ثم حيا البواب وانصرف . بدا له كل شيء جميل سهلا الآن . وابتسم اذ تذكر مخاوفه . انه لم يتغير طبعا . سوف يكون دائما العوبة كهذا الزنبرك الغامض الذى يهتز داخله بدون انقطاع وسوف يتأرجح دائما بين الخوف والأمل والحزن والفرح والشك والايمان .. لن يشعر بالراحة الحقيقية والتوازن المعنوى ابدا في يوم من الأيام . ومع ذلك فانه عندما يكون بجوار مادلين .. واقصي مادلين عن ذهنه حتي لا يختلط عليه الأمر .. لم تبد له باريس أبدا أجمل مما بدت في ذلك الصباح وهو يمشي

على قدميه في بطء. وفي الساعة العاشرة بلغ مكتب جيفين، وكان هذا الأخير قد وصل.

واستقبله هذا مرحبا قائلا : اجلس يا صديقي العزيز.. لحظة واحدة ريثما أعطى بعض التعليمات لمدير أعمالى.

بدا جيفين مرهقا متعبا. لن تمر سنوات قلائل حتي يمتلىء وجهه بالغصون والتجعدات وتظهر عليه الشيخوخة قبل أن يبلغ الخمسين. واغتبط فلافيير في قرارة نفسه لهذا الخاطر وهو يأخذ مقعدا ويجلس بجوار المكتب. وعاد جيفين بعد لحظات وربت بيده على كتف صديقه وهو في طريقه الى مقعده وقال مازحا :

ـ انني احسدك. وددت أنا أيضا أن أقضي أمسياتي برفقة امرأة جميلة خصوصا إذا كانت هذه المرأة هى زوجتي.. انني أعيش حياة تهد كياني.

وجلس في اعياء وأدار مقعده ليواجه فلافيير وقال :

ـ حسنا ؟.

ـ لا شيء حتي الآن. ذهبنا الى اللوفر أول أمس، ولم أرها بالأمس. كنت أنتظر منها مكالمة تليفونية وأعترف لك أن هذا الصمت..قاطعه جيفين :

ـ لا خطر هناك. كانت تشعر بتوعك بسيط.. عندما عدت من الهافر وجدتها تلازم الفراش.. ستكون غدا على ما يرام.. أنني اعتدت على هذا فلا تخف.

ـ هل حدثتك عن نزهتنا ؟

ـ قليلا.. أرتني بعض هدايا قالت أنها اشترتها.. قداحة على ما أذكر.. ان حالتها لا بأس بها على كل حال.

ـ حسنا. يسرني هذا.

عقد فلافيير ساقيه وبسط ذراعه خلف ظهر مقعده في تراخ وقال وقد عاد اليه شعوره بالأمان .

انني لا أعتقد أن هناك جدوى من هذه المراقبة .

ـ ماذا تقصد .. هل تريد أن ؟ .. ولكنك رأيت بنفسك ماذا وقع لها .

فقال فلافيير في ارتباك :

ـ نعم .. نعم .. ولكن الحقيقة .. انني أشعر بالحرج من مرافقة زوجتك . لا ريب أنك تفهمني .. انك تفهمني .. انني أبدو كأنني .. ليس الموقف صادقا اذا أردت الدقة .

أمسك جيفين بقطاعة ورق وراح يقلبها بين يديه . ثم هز رأسه في حركات قصيرة متتابعة وقال :

ـ وأنا ؟ هل تظن أن هذا الموقف يروق لى ؟ اني اقدر شعورك . ولكن ليس لنا الخيار . لو أن وقتي يسمح لى بأن أكرس جهدى لمادلين لحاولت أن أدبر أمورى بنفسي ولكنني لسوء الحظ لا أستطيع التخلص من عملى الآن .

وألقي بالقصاصة من يده وعقد ذراعه وأدخل عنقه بين كتفيه وحدق في فلافيير قائلا :

ـ امنحني خمسة عشر يوما أخرى أيها الصديق العزيز.. ثلاثة أسابيع على الأكثر.. سأستطيع توسيع أحواض السفن ، بمساعدة الوزارة من غير شك ، وعندئذ ساضطر الى الاستقرار في الهافر.. واذا بلغت ما أريد فقد أفلح في اصطحاب مادلين معي . ومن اليوم حتي ذلك الوقت أرجو أن تراقبها جيدا .. لا أطلب منك المزيد .. أنني أدرك شعورك جيدا وأعرف أنني ألقيت على كاهلك بمهمة صعبة ، ولكنني بحاجة الى أن يكون ذهني حرا

صافيا لمدة خمسة عشر يوما .

تظاهر فلافيير بالتردد وقال :

ـ اذا كنت تعتقد حقا أنها مسألة أسبوعين أو ثلاثة ؟

ـ هو كذلك .

ـ ليكن . مهما يكن فمن الأوفق أن تعرف موقفي . انني لا أحبذ هذه النزهات ، فأنا رجل هش سريع الخيال والتأثر .. ها أنت ترى أنني لا أخفي عنك شيئا .

كان وجه جيفين جامدا كوجه رجل تعود على اصدار أوامره في صرامة وشدة . ومع ذلك فقد ابتسم وقال :

ـ شكرا لك . أنت صديق مخلص أمين حقا ومن النادر أن أرى شخصا مثلك هذه الأيام . ولكن تهمني سلامة مادلين قبل كل شيء .

ـ هل هناك ما تخشاه ؟

ـ كلا ..

ـ ألم يخطر لك أن زوجتك اذا خطر لها فجأة أن تقدم على الانتحار مرة أخرى فقد لا استطيع التدخل في الوقت المناسب ؟

ـ نعم خطر لى ذلك .

خفض عينيه وضم يديه في عنف ثم قال :

ـ ولكن لم يقع شيء . أما اذا اتفق ووقع شيء ما فسوف تكون أنت موجودا فتذكر لى كل ما حدث لأن الشيء الوحيد الذى لا أستطيع احتماله هو الشك . أنني أوثر مائة مرة أن تكون مادلين مريضة حقا .. انني أفضل أن أراها فوق منضدة العمليات بين يدى جراح ، فانني في هذه الحالة سأعرف النتيجة حتما .. أما هذا الضباب .. لا يبدو عليك أنك تفهم ما أعني .

ـ بل انني أعرف .

ـ اذن ؟

ـ سأعتني بها فلا تخف .. وبهذه المناسبة ، ألا تعرف اذا كانت قد أقامت في مدينة سانت ؟

فسأله جيفين مشدودها :

ـ في سانت ؟ .. كلا ، بكل تأكيد .. ولكن لم هذا السؤال ؟

ـ انها تكلمت عن سانت كما لو كانت أقامت فيها فعلا .

ـ ماذا تعني ؟

ـ ألا تعرف اذا كانت قد رأت صورا لهذه المدينة ؟

ـ كلا .. كل ما أعرفه أنها لم تذهب اطلاقا الى غرب فرنسا . ثم أننا لانملك أى دليل لتلك المنطقة .

ـ وبولين لاجرلاك ؟ .. هل أقامت في سانت ؟

ـ أنك تسألني الكثير. كيف تريد مني أن أعلم ؟

ـ ان لاجرلاك من الأسماء الشائعة في سانت .. فهناك مثلا كونياك .. شرفينياك ، جيموزاك أستطيع أن أذكر لك عشرين اسما على هذا النمط .

ـ نعم . ربما .. ولكنني لا أدرى الصلة .

ـ أن الصلة موجودة فعلا ، فان زوجتك وصفت لى أماكن لم ترها قط وعرفتها بولين لاجرلاك من غير شك .. انتظرا هناك شىء آخر. انها وصفت لى ميادين الرياضة تماما كما كانت موجودة منذ مائة عام ، لا كما هى الآن .

قطب جيفين جبينه محاولا أن يفهم ثم قال :

ـ ماذا تظن ؟

فأجاب فلافيير :

ـ كفي هذرا .. أننا نعيش في القرن العشرين .. ما أظنك تريد أن تقول أن بولين ومادلين .. انني أقرك على أن مادلين تؤرقها ذكرى جدتها ولكن لابد أن هناك تفسيرا لذلك ، بل إنني ناشدتك المساعدة لهذا السبب . ولو كنت أتوقع أنك ستأتيني لتقول أن ..

ـ أنني عرضت عليك التخلى عن هذه القضية ..

أحس فلافيير بالتوتر الذى تولد بينهما فجأة . وانتظر قليلا ثم نهض قائلا :

ـ لا أريد أن أضيع وقتك .

هز جيفين رأسه وقال :

ـ المهم هو انقاذ مادلين .. لايهمني أن تكون مريضة أو مجنونة أو أن يكون بها مس .. ولكن يهمني أن تعيش قبل كل شيء .

ـ أهى خارجة اليوم ؟

ـ كلا ..

ـ متي تخرج اذن .

ـ غدا بكل تأكيد . أما اليوم فسأتبع نصيحتك وأقضيه معها .

لم تهتز خلجة واحدة لفلافيير. ولكنه احس بحقد طاغ يستولى عليه فجأة وقال لنفسه . لشد ما أنا حاقد عليه ! إنني أشعر بالتقزز .. واستطرد في صوت مسموع :

ـ لا أدرى هل أستطيع التحرر غدا أم لا ؟

نهض جيفين بدوره ودار بالمكتب ودس ذراعه تحت ذراع فلافيير. وقال وو يتنهد :

ـ معذرة ياصديقي . انني فظ ، يتملكني الانفعال لغير ما

سبب . وليس الذنب ذنبي . وأخشي أن افقد أعصابي . اصغ الى . سوف أحدثها عن الهافر ، ولا أدرى كيف تستقبل قولى هذا ، ولهذا أرجو أن تدع التردد جانبا . لابد أن تتحرر غدا من كل شيء لمراقبتها . انني أتوسل اليك . وغدا مساء أرجو أن تتصل بي هنا وتخبرني بملاحظتك .. انني شديد الثقة بتقديرك .. هل هذا مفهوم ؟

اين تعلم جيفين التحدث بهذا الصوت المؤثر الرزين .. وأجاب :

ـ نعم .

وندم لهذا الرد السريع الذى جعله يخضع لسلطان جيفين ، ولكن أقل بادرة للعطف كانت تنتزع منه كل قدرة على المقاومة .

ـ شكرا لك ، لن أنسي ماتبذله لى .

وتمتم فلافيير عل عجل :

ـ انني منصرف . لا تنزعج نفسك ، فانني أعرف ومرت الساعات بالنسبة له فارغة رتيبه الى حد الضجر . لم يعد يفكر في مادلين من غير أن يرى جيفين قريبا منها . كان يحس دائما بنفسن الألم اللاذع في نفس المكان .. أى في القلب .. أى رجل هو اذن أنه كان يخون مادلين .. ويخون جيفين كذلك كانت الغيرة والغيظ والرغبة واليأس تتنازعه وتكاد تقتله ولكنه كان يشعر على الرغم من ذلك بأنه صادق مخلص .. فهو لم يكن سيىء النية أبدا .

وانقضي النهار وأقبل المساء وهو يرمى نفسه بالغدر والخيانة تارة ويخضع للارهاق والاعياء الى حد أنه كان يضطر الى الجلوس في أى مكان ، تارة أخرى .. فيجلس فوق مقعد بالشارع أو في احدى المقاهي وهو يشعر بعجزه عن الوقوف .. ماذا ستكون حاله

بعد أن تغادر مادلين باريس؟ .. هل يجب أن يمنعها من الرحيل؟ .. وكيف ذلك؟

وانتهى به المطاف الى دار للسينما ونظر في شرود الى جريدة الأخبار .. دائما نفس المواضيع فرق عسكرية ، ومعسكرات ومناورات .. كان النظارة ينظرون الى المناظر التي تمر أمامهم وهم يمتصون قطع الحلوى في هدوء اذ لم تعد مثل هذه المناظر تثير اهتمامهم فقد كانوا متأكدين أن الألمان سيهزمون شر هزيمة عند أول هجوم لهم . وراح فلافيير في اغفاءة قصيرة كالمسافر الذى يقضي وقته في قاعة الانتظار ولكنه سرعان ما أفاق وانصرف اشفاقا من أن يغلبه النوم . كان متعبا .. دامع العينين فاتخذ طريقه الى منزله في تباطؤ. وكانت الليلة مظلمة وكان من وقت لآخر يلتقي برجل يغطى رأسه بخوذة وفي يده صفارة ويدخن سيجارة في انتظار المجهول . ولكن كان يبدو أنه لن تقع غارات في تلك الليلة فان الألمان كانت تعوذهم القوة الضاربة التي تكفيهم للقايام بمثل هذا العمل .

تمدد فوق فراشه وأشعل سيجارة . غلبه النوم فجأة قبل أن يتمكن من استبدال ملابسه وراح في نوع من الخدر شل حركته شيئا فشيئا حتي بدأ جامدا كأحد تماثيل اللوفر .. مادلين ! ..

واستيقظ حاضر الذهن وعرف على الفور الصوت الذى ايقظه .. كان صوت صفارات الانذار .. وكانت تدوى كلها في وقت واحد فوق الأسطح .. واطفئت الأنوار وبدت المدينة مظلمة اظلاما تاما أشبه بالباخرة التي تشرف على الغرق .. أبواب تصطفق في البيت وخطوات تبتعد مسرعة اضاء المصباح الصغير الموجود بجانب فراشه .. الساعة الثالثة صباحا .. وتقلب على جانبه الآخر

وأغمض عينيه ، وعندما عرف في الساعة الثامنة صباحا وهو يستمع الى الانباء متشائما أن الألمان قاموا بالهجوم فجأة داخله احساس غريب بارتياح ، فها هى ذى الحرب أخيرا ، وسوف يتمكن الآن من أن ينفض عنه عذابه ويشارك الآخرين في قلقهم واضطرابهم مشاركة فعلية . فقد جاءت الحرب لمساعدته ولم يعد أمامه إلا أن يترك نفسه يندفع في غمارها .. شعر بالحياة تتدفق في شرايينه . كان جائعا ولكنه لم يعد يشعر بأى تعب أو ارهاق . ودق جرس التليفون وتكلمت مادلين فقالت أنها ستكون بانتظاره في الساعة الثانية .

قضي فترة الصباح كلها وهو يعمل فاستقبل العملاء وأجاب على المكالمات التليفونية ، وأحس في صوت محدثيه بنبرة انفعال اشبه بأفعاله هو ولكن الأنباء كانت قليلة نادرة فان الصحافة والاذاعة راحتا تتحدثان عن تقدم الألمان من غير أن يحددا شيئا . وكان هذا أمراً عاديا مألوفا على كل حال . وتناول غذاءه في المحكمة مع زميل له وتبادلا الحديث مدة طويلة واشترك من أناس أغراب في الحديث بدون كلفة ، وبسطوا خرائط فرنسا وراحوا يفحصونها فحصا دقيقا . وهكذا قربت الحرب بين الجميع . كاد فلافيير ينسي موعده في غمرة انفعاله ولم يتذكره ، الا في آخر لحظة فقفز في عربته السيمكا وأسرع الى ميدان النجمة وقد أثملته الكلمات والضجيج والشمس .

كانت مادلين في انتظاره . لماذا اختارت بالذات التايير الأسود الذى كانت ترتديه يوم أن ؟ .. وأمسك يدها التي يغطيها القفاز وقال :

ـ انني كدت أموت قلقا عليك .

ـ كنت مريضة معذرة .. هل أستطيع القيادة .

ـ بكل سرور ، فانني أعيش على أعصابي منذ الصباح .. هل تعلمين أن الألمان قد قاموا بالهجوم ؟

ـ نعم ..

وانعطفت بالسيارة الى شارع فيكتور هوجو ... وأدرك فلافيير على الفور أنها لم تبرأ تماما من مرضها فقد كانت تحرك مفاتيح السرعة والفرامل فجأة ثم تعاود الانطلاق مسرعة . وكانت ممتقعة اللون قليلا .

وقالت : ـ لا أدرى لماذا اشعر بالرغبة في القيادة اليوم ؟ .. لعل هذه آخر مرة نخرج فيها معا .

ـ لماذا تقولين ذلك ؟

هزت كتفيها وأجابت : ـ اننا لا ندرى كيف تقع الأحداث .. ولست واثقة من البقاء في باريس .

تحدث جيفين اليها اذن . بل لعلهما تشاجرا .. وسكت فلافيير حتي لا يشغلها على الرغم من أن الشارع لم يكن مزدحما . وخرجا من باريس من بوابة لاموتت واخترقا غابة بولونيا .

وقال فلافيير : ـ ولماذا لا تبقين في باريس ؟ .. ليس هناك أى خطر في أن يمطرنا الألمان بالقنابل .. ومهما يكن من أمر فهم لن يتقدموا الى أبعد من نهر المارن هذه المرة .

واذ رآها لا تجيب عاد يقول : ـ هل تفكرين في الرحيل بسبب .. بسببي أنا ؟ .. لا أريد أن اكدر عليك حياتك يا مادلين .. هل تسمحين أن أدعوك مادلين .. أود أن أتأكد انك لن تكتبي أبدا خطابا آخر كذلك الخطاب الذى مزقته .. انك تفهمين قصدى ..

وضغطت على شفتيها وقد أولت كل اهتمامها لكى تسبق عربة نقل حربية تسير امامها . وبدأ ميدان السباق بلونشان اشبه بالمرعى الكبير الذى لا ينقصه شيء غير قطيع الغنم ، وكان جسر سورس مزدحما فاضطرت الى الابطاء .

وتمتمت تقول : ـ دعنا من الحديث في هذا الأمر الآن .. الا يمكن أن ننسي الحرب قليلا وأن ننسي الدنيا ؟

ـ ولكنني أراك حزينة يامادلين ..

ـ أنا ..؟

وابتسمت ابتسامة تعسة في شجاعة واستسلام ، فاحس فلافيير بالحزن لذلك في حين استطردت : ـ

ـ أنا على ما يرام كعادتي . أؤكد لك انني لم اتمتع بالحياة ابدا كما تمتعت بها اليوم . الا ترى أن انطلاقنا هكذا صدفة واتفاقا من غير أن نعرف مايخبئه لنا القدر هى السعادة كل السعادة .. وددت الا أفكر في شيء أبدا .. لماذا لم يخلقنا اللّه حيوانات .

ـ ماذا تقولين ؟ .. انك تهذين .

ـ كلا .. ان الحيوانات تعيش راضية بحالها تأكل وتنام دون أن يشغلها شاغل .. ليس لها ماض ولا مستقبل .

ـ هذه فلسفة ..

ـ لا أدرى هل هى فلسفة أم لا ، ولكنني أحسد هذه الحيوانات .

ومرت بهما أكثر من ساعة لم يتبادلا فيها غير كلمات قلائل ، وكانا قد بلغا قصر سان جرمان وانطلقا في الغابة في سرعة كبيرة ، وقبل أن تصل الى بواسي بقليل خفضت من سرعة السيارة . ومرا في طريقهما بعربة محملة بالأخشاب ، وقد ظلت رائحة الأخشاب

تلاحقهم وقتا طويلا . وأعترضهما أخيرا مفرق طرق واختارت مادلين الطريق الأيمن بسبب سياج الزهور الذى يحيط به من غير شك .

اسرعت مادلين بدون سبب وأخذت تهتز . نظر فلافيير الى ساعة يده خلسة . سوف يتوقفان بعد قليل ويسيران جنبا الى جنب وسيتمكن عندئذ من سؤالها لأنها لاتشك أنها تخفي عنه شيئا .. ومن يدرى لعلها ارتكبت حماقة قبل زواجها ولا ينفك ضميرها يؤنبها عليها ، فهى ليست مريضة ولا كاذبه . بل هناك فكرة تسيطر عليها ولا شك أنها لم تجرؤ على أن تبث همومها لزوجها . كلما واجه فلافيير هذه النظرية كلما بدت له معقولة فان تصرفات المرأة الشابة كانت تصرفات امرأة تشعر بالذنب .. ولكن بأى شيء اذنبت لابد أن الأمر شديد الخطورة .

وسألته مادلين : ـ هل تعرف هذه الكنيسة ؟ .. أين نحن ؟ ..

ـ ماذا .. معذرة .. هذه الكنيسة .. كلا .. لا أعرفها . ليست لدى أيه فكرة عنها .. هل تريدين أن نتوقف . ان الساعة قد بلغت منتصف الرابعة .

وتوقفا في فناء مقفر ، خلف بعض الأشجار العالية . وقالت مادلين :

ـ هذا غريب .. ان جزءاً من مبني الكنيسة من طراز روماني أما الباقي فحديث البناء .. أنها ليست جميلة جدا .

وقال فلافيير : ـ أن برج الجرس عال جدا .

ودفع الباب فطالعتها لافته مكتوب عليه هذه الكلمات (حيث أن الراعى جراسيان يقوم بخدمة بعض القرى الاخرى فان القداس يبدأ في الساعة الحادية عشر من صباح كل يوم احد) .

تقدما في بطء بين الكراسي المصنوعة من القش وسمعا قوقأة الدجاج في الفناء . وكانت اللوحات المعلقة الى جوار الصليب تعلوها القشور لقدمها . وجثت أمام مركع يعلوه الغبار ووقف فلافيير على مقربة لا يجرؤ على التحرك . لماذا تطلب الغفران .. ومن أى ذنب .. أكانت ست تلحقها اللعنة لو أنها غرقت .. ولم يملك نفسه فجثا بجوارها وقال :

ـ مادلين .. هل تؤمنين حقا ؟

حولت رأسها اليه .. كانت شاحبة الى درجة أنه حسبها مريضة .. وقال :

ـ ماذا بك ؟ .. اجيبني يا مادلين .

فهمست : ـ ليس بي شيء .. انني مؤمنة طبعا .. انني مضطرة الى الايمان بأن لا شيء ينتهى في هذه الدنيا ، وهذا أفظع ما في الأمر .

ـ هلم بنا ..

ونهضت .. ورسمت على صدرها علامة الصليب أمام المعبد . وأخذ فلافيير يدها قائلا :

ـ من الأفضل أن نخرج .. لأاحب أن أراك في هذه الحالة ..

ومرا أمام كرسي الاعتراف باليا ، وكان باليا يتداعى .. وندم اذ لم يدفع مادلين اليه .. ولكنه لم يلبث أن عزى نفسه قائلا : أنها بحاجة الى قسيس لأن القساوسة ينسون أما هو فانها اذا اعترفت له فلن ينسي . وسمعها تتحسس طريقها في العتمة بحثا عن مزلاج الباب الذى لم يلبث أن أنفتح عن سلم حلزوني فقال :

ـ انك اخطأت يا مادلين .. فهذا السلم يؤدى الى برج الجرس .

فقالت : ـ أريد أن أرى ..

ـ ولكن الوقت قد تقدم بنا .

ـ دقيقة واحدة ..

وأسرعت صاعدة . وما كان في وسعه أن يتردد فصعد الدرجات الأولى على مضض وهو يتشبث بحبل مشحم يستخدم كدرابزون .

ـ مادلين .. لا تسرعى هكذا !

ورن صوته فرجعه الصدى بين الجدران الضيقة . ولم تجبه ، ولكن صوت حذائها الصغير كان يرتفع فوق الدرجات .. وبلغ فلافيير البسطة الأولى ورأى من نافذة صغيرة سطح السيمكا ثم سلسلة من الأشجار يمتد بعدها حقل تشتغل فيه النسوة وقد غطين رؤوسهن بمناديلهن وأخذه الدوار فابتعد عن النافذة على الفور وراح يصعد في بطء ..

ـ مادلين .. انتظرى .

وتلاحقت انفاسه وغلى الدم في وجهه وأخذ يجر قدميه جرا بلغ البسطة الثانية ووضع يده أمام عينيه حتي لا يرى الفراغ ولكنه أحس به على يساره ، في البئر الذى تمتد حبال الجراس خلالها . وطارت بعض الغربان وهى تنعق .. ابدا لن يستطيع العودة .

ـ مادلين .

وبح صوته . هل يصيح كما يفعل الطفل في جوف الظلام .. أصبحت الدرجات أكثر علوا وكانت مشقوقة في وسطها . وسقط قليل من الضوء من نافذة ثالثة . لن يملك نفسه من القاء نظره . وفي هذه المرة رأى قمم الأشجار تحته ولم تكن

السيمكا أكبر من بقعة صغيرة . سيهب الهواء من كل ناحية ويدفعه كما لو كان موجة عاتيه . تقدم خطوة أخرى ثم خطوتين الى أن اعترضه باب مغلق ، وكان السلم يستمر في ارتفاعه من خلفه .

ـ مادلين ، افتحى ..

أخذ يهز أكرة الباب ويضرب الخشب بجميع يده .. وأصبح :

ـ لماذا اغلقت الباب ؟

ـ كلا .. كلا يامادلين .. لا تفعلى هذا .. أنصتي الى .

ودقت الأجراس في أعلى البئر ورجعت البئر الصدى فزادته دنيناً معدنيا ، ودوت كلمات فلافيير في المكان بصورة غريبة شديدة القسوة والخشونة ، جعلته كاد يجن . ألقي نظرة الى النافذة الصغيرة . كان الباب يشطرها شطرين . هل يمكن أن يدور حول الباب من الخارج ! .. نعم كان هناك بروز صغير يحيط بالبرج . ونظر اليه وهو يلهث مسحورا .. رجل آخر يمكنه أن يعبره أما هو فمحال .. سوف يقع بكل تأكيد .. وتدق رأسه .. آه .. وعاد يصيح .. مادلين .. وجاءه الرد صرخة مدوية وخيال شبح يهوى أمام النافذة ، فوضع يديه فوق فمه كما كان يفعل وهو صبي صغير .. ثم سمع صوت ارتطام جسم بالأرض . فتصبب العرق باردا فوق عينيه وأخذ يتمتم دون وعى :

ـ مادلين .. مادلين ..

وأخيرا اضطر للجلوس .. وخيل اليه انه سيغمى عليه .. فأخذ يجر نفسه جرا ، وهبط الدرجات درجة درجة وهو لا ينقطع عن التأوه خوفا ويأسا .

وعندما بلغ البسطة الأولى دنا من النافذة وألقي نظرة الى الخارج وهو جاث على ركبتيه فرأى تحته ، على يسار البرج مدافن

القرية ، وفي اسفل البرج وقعت عيناه على كومة من الثياب السوداء ، فمسح عينيه بظهر يده ليتمكن من الرؤية في وضوح .. كانت هناك بقع من الدم فوق الحصي وحقيبة يد سوداء مشقوقة وقداحة ذهبية تلمع بين الحطام .. أخذ يبكى ، ولم يخطر له أن يهبط لمساعدتها .. ولقد ماتت .. ومات هو معها .

الفصل السادس

تأمل فلافيير الجسد المسجى على الأرض من بعيد . كان قد دار حول الكنيسة واجتاز المدافن ووقف لا يجرؤ على التقدم . تذكر صوت مادلين وهي تقول هامسة (ان الموت لايؤلم) وتشبث بهذه الفكرة في يأس . لقد أدركها الموت سريعا فلم تتألم . وقد قيل ذلك عن ليريش أيضا ، فقد وقع مثلها وأدركه الموت سريعا هو الآخر فلم يتألم . ولكن كيف أمكنهم التأكد من هذا الأمر .. ان رأس ليريش دقت وتناثر دمه في كل مكان .. وخارت قوى فلافيير عندما رأى بقايا زميله في المستشفي وكان البرج أعلى بكثير عن سطح البيت الذى وقع منه ليريش . تصور السقطة العنيفة ، والهشيم الذى يشبه حركة هشة صافية تتطاير شظاياها لم يعد هناك من مادلين غير هذه الكتلة الجامدة التي تبدو كشبح وضع بجوار الجدران لافزاع الطيور . واقترب في وجل وهو يرغم نفسه على النظر والتألم ، فهو وحده المسئول عما حدث . ومن خلال دموعه رأى الجثة المهشمة والشعر الجميل ذى الانعكاسات الساحرة الذى تفكك نصفه ولطخه الدم كاشفا عن مؤخرة العنق ، واحدى يديها قد أصبحت بلون الشمع يلمع في اصبعها خاتم الزواج و .. بين حطام الحقيبة المشقوقة كانت القداحة ، التقط فلافيير القداحة ، ولو جرؤ لانتزع الخاتم هو الآخر من أصابعها .

ياللصغيرة المسكينة أوريديس ! .. لن تعود أبدا من العدم حيث أرادت أن تختفي .

وابتعد في بطء وهو يرجع القهقرى كما لو كان قد قتلها . وتملكه الخوف فجأة من هذه الكتلة الفظيعة التي سرعان ما أخذت الغربان تحوم فوقها ، فشق طريقه بين القبور وأصابعه

تتقبض على القداحة الذهبية . انه التقي بمادلين في مقبرة وتركها في مقبرة .. هذا كل شيء .. والآن .. لقد انتهى كل شيء . لن يعرف أحد لماذا أقدمت على الانتحار ، ولم يعرف أحد أنه كان هنا معها وأنه لم تواته الشجاعة ليجازف بالوصول اليها من خلال باب البرج . وبلغ الساحة وجلس في عربته . وتراءت له صورة مادلين تنعكس أمامه على الزجاج الأمامى للسيارة فكاد قلبه يتوقف هلعا . كره حياته وتفتحت أمامه أبواب الجحيم . فانطلق بالسيارة لا يلوى على شيء . مر الوقت سريعا وعرته الدهشة عندما وجد نفسه عند محطة بونتوار . مر أمام نقطة الشرطة .. هل يجب أن يدخل ويبلغ عن الحادث ويسلم نفسه .. ؟ ولكن القانون لا يستطيع شيئا ضده .. سيحسبونه معتوها ما العمل اذن ؟ هل يطلق رصاصة على رأسه ؟ محال . لن يجد من نفسه القوة على ذلك أبدا . كان لابد أن يعترف الآن بأنه جبان وأن الدوار ليس عذرا . ان ارادته هى المريضة . آه . لقد كانت مادلين على حق . ليته كان حيوانا يأكل في هدوء ثم يساق الى المذبح دون أن يدرى ما خبئ له .

عاد فلافيير الى باريس من بوابة اسنيير ، وكانت الساعة قد بلغت السادسة أن جيفين يجب أن يعلم .. توقف عند احدى المقاهى بشارع فاليشرب ، ودخل الى دورة المياه حيث غسل وجهه بمنديله ومشط شعره ثم توجه الى التليفون . كان الصوت الذى اجابه غريبا وأخبره أن جيفين غير موجود وأنه يحتمل ألا يعود الى مكتبه اليوم . فطلب كأسا من الكونياك شربه دفعه واحدة ، أفعمه الحزن بنوع من الثمالة وخامره احساس بأنه يتحرك في معرض للأسماك وأن الناس يروحون ويجيئون حوله كما لو كانوا

اسماكا . وتناول كأسا أخرى وهو يحدث نفسه من لحظة لأخرى فيقول أن مادلين ماتت . ولم يستغرب ذلك في قرارة نفسه فقد كان متأكدا منذ البداية أنه سيفقدها حتما . كان لابد له من طاقة كبيرة وحيوية أكبر ليجعلها تتمسك بأهداب الحياة .

طلب فلافيير كأسه الثالثة ثم عاد لتأملاته .

أنه انقذها مرة ولم يكن في مقدوره أن يفعل أكثر من هذا . كلا . انه لا يستحق أى لوم . أنه استطاع أن يدور بالباب لما تمكن من الوصول اليها في الوقت المناسب . كانت رغبة الموت تستبد بها ، وقد أخطأ جيفين اذ قصده هو فقد كان يجب أن يقصد رجلا آخر غيره .. رجلا ساحرا فنانا مشرقا ولكنه قصد رجلا ضيق الافق لا يفكر الا في نفسه ويقضي كل وقته أسير ماضيه .. ودفع حسابه وخرج شد ما هو متعب .

وانطلق في بطء نحو ميدان النحمة . كان يلمس بيديه عجلة القياة وهو يحسد قارئي الطالع الذين يستطيعون قراءة ما يعتمل في النفوس بمجرد لمس منديل أو مظروف . شد ما تمني أن يعرف هموم مادلين الأخيرة .. أو بمعني أصح أسباب عدم اكتراثها .. أنها خرجت من الحياة بدون تردد ووقعت على الارض ورأسها الى الأمام باسطة ذراعيها كما أو كانت تريد أن تحتضنها لكى يتسني لها أن تمتلكها كلها . لم تهرب . بل عادت الى شيء ما . خامره شعور بأنها توارت عنه فجأة من باب آخر. لقد أخطأ ، بتناوله الشراب ، وشتت الهواء الذى يصفر في أذنيه الأفكار في رأسه وجعلها تتطاير كما كانت تتطاير قصاصات الخطاب الممزق ، وانطلق الى شارع كليبر وأوقف عربته خلف عربة جيفين السوداء الكبيرة . لم يعد يخشي جيفين فهذه آخر مرة يتصل به فيها . وصعد

السلم الرخامى في شيء من التصميم . ورأى اسم جيفين يلمع على لوحة نحاسية فوق الباب .. دق الجرس وخلع قبعته وعندما فتح الباب قال في صوت خافت :

ـ مسيو جيفين .. قل له الاستاذ فلافيير يريد أن يراه .

هذا هو مسكن مادلين اذن .. شمل الاثاث والستائر والنحف بنظرة ود أن يحملها كل معاني الوداع ، في حين آثارت اللوحات المعلقة على جدران الصالون جزعة لغرابتها ، كانت حافلة باللمسات الفنية ولكن كان فيها شيء آخر. كانت كلها تصور مجموعة من الحيوانات : جياد خرافية مقرنة وبجعات وطيور .. اقترب فلافيير وقرأ التوقيع (مار.جيفين) .. أهذه الحيوانات هي ضيوف سكان البلد الآخر؟ .. أين رأت هذا المستنقع الأسود ونبات عروس النيل الذى يشبه أقداحا مملؤة بالسم ؟ . وهذه الغابة بأشجارها وأغصانها الوراقة ؟ .. كانت هناك فوق الموقد صورة لامرأة تزين جيدها الرقيق بعقد أصفر ذى حبات مستطيلة هى صورة بولين لاجرلاك . كانت تصفيفة شعرها هى نفس تصفيفة شعر مادلين ولكن وجهها كان أكثر رقة تنطق سماته بالحزن والاعياء وتعبر عن شيء من الشرود ، كما لو كانت روحها قد عثرت في عقبة خفيفة لا يعرفها أحد غيرها .. كان فلافيير لا يزال يتأمل هذه الصورة وقد تملكته الحيرة عندما فتح الباب خلفه وهتف جيفين :

ـ أهذا أنت أخيرا ؟

وواجه فلافيير على الفور قائلا في هدوء : أهى هنا ؟

ـ ماذا تقول ؟ .. أنت وحدك الذى يجب أن يعلم مكانها !

تهالك فلافيير فوق مقعده في إعياء ، ولم يكن بحاجة الى

التظاهر بأنه متعب ، وتمتم قائلا :
ـ لم نكن معا . انني انتظرها حتي الساعة الرابعة في ميدان النجمة . ذهبت بعد ذلك الى الفندق بشارع الآباء القديسين ثم الى مدافن باسي ، والى كل مكان أتوقع أن تكون به .. ولم أعد غير الآن .. فاذا لم تكن هنا فلابد ..

توقف فلافيير عن استكمال عبارته رفع عينيه الى جيفين ، وكان هذا الأخير ممتقع اللون ، جاحظ العينين ، فاغر الفم كما لو كان يوشك أن يختنق ، وقال :
ـ كلا .. كلا .. ياروجر .. لايمكنك أن ..

هز فلافيير كتفيه وقال : ـ قلت لك أنني بحثت عنها في كل مكان .

صاح جيفين : ـ هذا محال .. ألا تفهم أن .. وركل السجادة بقدميه وقد ضم قبضتيه وتهالك فوق الأريكة وهو يقول :
ـ يجب أن تجدها .. حالا .. حالا .. لن أحتمل ابدا ..

وجعل يدق بيده ذراع الأريكة في غيظ وألم وعنف شديد ، الى درجة أن فلافيير تملكه الغضب بدوره وصاح محنقا :
ـ اذا أرادت امرأة أن تهجر بيتها فإنه من العسير الحيلولة دون ذلك .
ـ تهجر بيتها ؟ .. تهجر بيتها ؟ .. ولكن مادلين ليست من هذا النوع من النساء .. آه .. ليت الأمر كما تقول .. لعلها في هذه اللحظة ..

ونهض : وتعثر في المنضدة الصغيرة التي تتوسط الحجرة ومشي حتي بلغ الحائط فاعتمد عليه وقد تقوس ظهره ، ومالت رأسه أمامه كالمصارع الذى تأهب للدفاع عن نفسه وسال :

ـ ما العمل في مثل هذه الحالة ، .. لا ريب انك تعرف .. هل تبلغ الشرطة ؟ حسنا .. تكلم .. قل شيئا ..

تمتم فلافيير : ـ سوف يرموننا بالحماقة .. ولكن اذا كان قد مضي على اختفاء زوجتك يومان أو ثلاثة فالأمر يختلف ..

ـ ولكنهم يعرفونك ياروجر .. وإذا قلت لهم أن مادلين أقدمت على الانتحار مرة وأنك انتشلتها من النهر .. وانها ربما أقدمت على نفس الشيء اليوم فسوف يصدقونك ..

قال فلافيير في استياء : ـ لم نفقد الأمل بعد .. سوف تعود قبل موعد العشاء بكل تأكيد .

ـ وإذا لم تعد ؟.

ـ في هذه الحالة عليك أنت أن تقوم بما تريد من اجراءات ..

ـ هل أفهم من هذا أنك تنفض يديك ؟

ـ كلا .. ولكن .. حاول أن تفهم .. يجب على الزوج في مثل هذه الحالة أن يذهب الى قسم الشرطة بنفسه .

ـ حسنا . انني ذاهب الآن .

ـ لا تكن أحمقاً . لن يتحرك أحد على كل حال . سيدونون أقوالك ويأخذون أوصافها ثم يعدونك بعمل اللازم وينتظرون سير الأحداث .. هذه هى الاجراءات

وضع جيفين يديه في جيوبه في بطء وتمتم : ـ اذا كان يتعين على الإنتظار فسوف أصاب بالجنون .

ومشي بضع خطوات ووقف أمام باقة ورد فوق المدفأة . وجعل يتأملها عابس الوجه . وقال فلافيير :

ـ لابد لى من الانصراف .

لم يتحرك جيفين .. وظل واقفا ينظر إلى الزهور واختلجت

عضلة خده الايمن . وعاد فلافيير يقول :

ـ لو كنت مكانك لما شغلت نفسي إطلاقا .. إن الساعة لم تزد عن السابعة . ربما تأخرت في أحد المحال أو لعلها التقت بأحد .

قال جيفين : ـ هذا أمر لا يهمك طبعا .

ـ دعك من أفكارك هذه .. لنفرض أنها أرادت أن تهرب .. لن تذهب بعيدا ..

وراح يشرح لجيفين في صبر وأناة كل الوسائل التي يملكها الشرطة للاهتداء الى شخص هارب . وتملكه الانفعال على الرغم مما يشعر به من إعياء وبدا له فجأة أن مادلين لا يمكن أن تذهب بعيدا في الواقع ، وكان في نفس الوقت يتمني لو استطاع أن يرقد فوق السجادة ويطلق العنان لمشاعر اليأس الذى تملكه . أما جيفين فقد ظل واقفا امام باقة الزهور جامدا كما لو كان مستغرقا في الأحلام .

واختتم فلافقير حديثه قائلا : ـ اتصل بي حالما تعود وسار الى الباب . لم يعد يستطيع التحكم في خلجات وجهه ولا في تعبيرات عينيه . احس أن الحقيقة ستفلت منه وأنه سيصيح : (انها ماتت) قبل أن ينهار .

وتمتم جيفين : ابق معى .

وددت ذلك يا صديقي .. ولكنك لا تعرف ما لدى من عمل متراكم ... ان على مكتبي عشرة ملفات لا بد لى من دراستها .

وتوسل جيفين اليه للمرة الثانية : ابق ... لا أريد أن أكون وحدى عندما يأتوني بها .

ـ بول ... انك تهذى .

كان جمود جيفين مروعا وهو يقول : ستكون

معي .... وستقول لهم ... ستقول لهم إننا حاولنا معا

ـ نعم ، طبعا ... ولكن لن يأتي بها أحد .. لك أن تثق بما أقول .

وارتعش صوته فرفع منديله الى فمه على الفور ... وتظاهر بالسعال اكتسابا للوقت :

ـ تشجع يا بول ... سيسير كل شيء على ما يرام ... اتصل بي تليفونيا .

وتوقف ويده على مقبض الباب . كان جيفين واقفا وقد تدلت ذقنه على صدره وبدا كالمصعوق .

وخرج فلافيير وأغلق الباب خلفه في رفق وعبر الردهة على أطراف قدميه . كان يشعر بالتقزز من ريائه ولكنه احس مع ذلك بالارتياح فقد أقدم على أشق خطوة ، وفرغ من قضية جيفين ... فرغ منها الى الابد ... أما عذاب جيفين وألمه ... أفلا يتعذب هو ويتألم أكثر منه ؟ ... واضطر أن يعترف بينه وبين نفسه وهو يغلق باب السيارة خلفه انه اعتبر نفسه منذ البداية الزوج الحقيقي لمادلين . اما جيفين فلم يكن اكثر من مدع . والانسان لا يضحي بنفسه من أجل مدع . فلا يعقل أن يذهب رجل الى الشرطة والى زملائه القدامى ويقول لهم انه ترك امرأة تنتحر لأنه لم يجد من نفسه الجرأة على ... انه لن يتخلى عن سعادته للمرة الثانية من أجل غيره ... كلا ، من الأوفق أن يلزم الصمت وأن يخلد الى الراحة .. عميل أورليان ؟ .. كان يسير الآن على غير هدى في شارع طويل أخذ ظلام المساء يتسلل اليه في بطء .. مساء اسود حزين .. مساء حرب .. وفي مفترق طرق رأى زحاما ... تجمع بعض الافراد حول عربة فوقها حشيتان وهم

يعلقون على الأحداث . وفيما عدا ذلك كانت الشوارع مقفرة يطبق عليها الصمت . كان كل شيء يشير الى الميتة . ودخل مطعما صغيرا بشارع سانت هونوريه وجلس في ركن قصي . كان لابد له أن يأكل وأن يعيش . ودس يده في جيبه يتلمس القداحة في حين ارتسمت صورة مادلين امامه . وقال يحدث نفسه : انها لم تحبني بل ولم تحب أحدا .

وبدأ يتناول طعامه في حركة آلية بطيئة كما لو كان ناسكا . سوف يعيش الآن كما لو كان مسكينا بائسا سوف يفرض على نفسه اشق الاعمال ليعاقب ذاته . ولو كان باستطاعته أن يشترى سوطا فيجلد به نفسه كل ليلة . ان له الحق الآن في أن يمقت نفسه ، ويجب ان يمقتها أطول مدة حتي يكون أهلا لتقديرها .

جاء عامل المطعم ببعض الأطباق ووضعها أمامه وهو يقول : أنهم اكتسحوا لييج . الظاهر أن البلجيكيين أرتدوا الى الوراء ، تماما كما حدث في سنه ١٩١٩ .

فقال فلافيير : اشاعات .

لييج .. انها بعيدة جدا .. في اعلى الخريطة . لم يكن هذا الأمر ليهمه قيد شعرة فان الحرب لم تكن الا حلقة من الحرب الكبرى التي تمزق كيانه .

وعاد عامل المطعم يقول : سمعت أنهم رأوا في ميدان الكونكورد عربة أشبه بالمصفاة لفرط ما أصابها من طلقات الرصاص .

ولكنه رد عليه يقول : اليَّ بباقي الطعام .

ألا يمكن أن يدعوه في هدوء ؟ ... البلجيكيون ؟ .. وماذا يهمه من أمر البلجيكيين أو الهولنديين ... أن هذا العامل معتوه بلا

شك . وأسرع يمضغ طعامه . كان اللحم خشنا ولكنه لم يحتج فقد عقد النية على ألا يشكو وأن يواجه أحزانه في صمت ليعذب ذاته ويعاقبها بما تستحق . تناول كأسين من الخمر شعر بعدهما بأن الضباب الذى يسبح فيه منذ ساعات . قد أخذ يتبدد شيئا فشيئا ووضع مرفقيه فوق المائدة وأشعل سيجارة بالقداحة الذهبية . وأحس كأن الدخان الذى يتنفسه أنما هو جزء من كيان مادلين نفسها فاحتجزه في حلقه وأخذ يتلذذ به . أدرك تماما أن مادلين لم ترتكب ذنبا قبل زواجها ، وان نظريته تلك كانت سخيفة فان جيفين لم يتزوجها طبعا الا بعد أن استعلم عنها بما فيه الكفاية . ثم أن مادلين ما كانت لتحس بتبكيت الضمير بعد هذه المدة الطويلة من زواجها . هذه هى الحقيقة وليس هناك تفسير آخر . واشعل القداحة ونظر الى الشعلة الرقيقة لحظة ثم أطفأها . كان المعدن ساخنا في راحته . كلا لم تكن أسباب مادلين أسبابا مبتذلة . ظل طوال حياته فظا خشنا لا يهمه إلا التدخل في شئون الغير ولكنه سيجمل ابتداء من اليوم سوف يظهر نفسه وسيأتي يوم يستطيع فيه أن يعرف سر لاجرلاك . سيومض ذهنه ذات يوم لا محالة أكسبه هذا التصميم شجاعة . فمسح جبينه وطلب الحساب . وكان المبلغ مرتفعا ولكنه لم يتذمر فقد راض نفسه على عدم التذمر لانه جزء من العقاب ، وخرج . كان الليل قد أقبل وسرى الاظلام بين البيوت العالية حتي بدت النجوم وكأنها أقمار متناثرة . وكانت السيارات تتوالى بين لحظة وأخرى وقد غطيت مصابيحها باللون الأزرق . لم يشأ أن يعود الى مسكنه لأنه كان يخشي مكالمة من جيفين يقول له فيها انهم عثروا على الجثة . ولم يغضبه أن يفرض على نفسه تعبا جديدا وأن يرهق هذا الجسد ، لأنه هو

المسئول الحقيقي والوحيد عن كل هذا الشقاء ، فراح يمشي على غير هدى وقد اصابه نوع من الدوار والذهول . ظل هائما على هذا المنوال حتي الفجر. كانت مسألة كرامة ، بل لعلها كانت أكثر من ذلك . فلا ريب أن مادلين في مقرها الجديد كانت بحاجة الى فكرة صديقة يالاوريديس المسكينة ! .. وهنا اغرورقت عيناه بالدموع . تمني لو أستطاع أن يخترق حجب الفضاء لكى يحاول اللحاق بها هناك ، على الأقل في هذه الليلة الأولى . ولكنه لم يفلح الا في أن يستعيد الى ذهنه صورة مقبرة هى أشبه بهذه المدينة المحرومة من النور .. تجوس خلالها أشباح تتسلل بجواره وتضيع في جوف الظلام . حتي النهر الذى تتخبط أمواجه على الشاطئ لم يعد له اسم . وطاب له أن يضرب في هذه الظلمات ... فأرض الأحياء كانت بعيدة أما هذه الأرض فلم يعد فيها غير الموتي وغير اناس وحيدين تلازمهم ذكرى الايام الماضية ، يأتون ويذهبون وكل منهم يفكر في سعادته الغابرة . ومنهم من يقف وينحني فوق الماء ومنهم من يسرع الخطا بدون سبب ، ولعلهم يتأهبون للحساب الأخير. ماذا قال عامل المطعم منذ لحظات ؟ .. انهم اكتسحوا لييج ... جلس فلافيير فوق مقعد وبسط ذراعه خلف ظهره ... سيذهب غدا .. ترك رأسه تنحني فوق صدره وأطبق عينيه وراح يفكر قبل أن يستغرق في النوم .. هل سيواتيك النوم ؟ ولكنه مع ذلك نام . فوق المقعد كما لو كان متشردا لا بيت له ، الى أن أيقظه البرد بعد ذلك بمدة طويلة ، فأحس بتشنج وقتي يصيب ساقيه وجعله يتأوه . انصرف وهو يعرج ويرتعش من البرد . وبدأت خيوط النهار تتجمع وتحاول أن تطرد خيوط الليل . ولاد فلافيير بمقهى فتح لتوه وسمع الراديو

يقول إن الموقف مازال غامضا وأن جيش المشاة يحاول سد الثغرات . تناول قطعتين من البسكويت مع قدح من القهوة ثم استقل المترو عائدا الى بيته .

وما كاد يغلق خلفه الباب حتي دق جرس التليفون وسمع صوت جيفين يقول :

ـ ألو ... أهذا أنت يا روجر؟

ـ نعم

ـ انني كنت على حق ، لقد انتحرت مادلين .

لزم فلافيير الصمت في انتظار استكمال الحديث . واستطرد جيفين يقول وهو يتنفس في مشقة .

ـ أخطروني مساء أمس ... عثرت عليها امرأة عجوز بأسفل برج الجرس بكنيسة سان نيكولا .

قال فلافيير : سان نيكولا ؟ ... واين تقع ؟

ـ على مقربة من مانت ... هي قرية صغيرة بين سابي ودرونكور ...اني أكاد لا أصدق .

ـ ماذا كانت تفعل هناك ؟

ـ انك لم تعرف أسوأ ما في الأمر.. انها ألقت بنفسها من أعلى البرج فتهشمت فوق الأرض ... وقد نقلوا جسدها الى مستشفي مانت .

ـ قال فلافيير : يا صديقي المسكين ! .. اذاهب انت الى هناك ؟

ـ بل أنني أت من هناك الآن . ما كدت أعلم بالنبأ حتي أسرعت الى هناك وقد حاولت أن أتصل بك ولكنني لم أجدك بالبيت .. سأقوم ببعض الاجراءات العاجلة ثم أعود الى هناك لأن

الشرطة : تقوم بالتحقيق .

ـ هذا أمر لابد منه ... ولكن الانتحار واضح .

ـ ولكنه لا يفسر لماذا ذهبت الى هذا المكان البعيد ولماذا وقع اختيارها على هذا البرج بالذات .

اني لا أريد أن اذكر لهم ان مادلين ...

ـ لن يكون هناك داع لذلك .

ـ هل تظن ذلك ؟ .. يسرني أن تكون بجوارى على كل حال .

ـ لا أستطيع الآن ، فلدى قضية عاجلة في أورليان ، ولا يمكنني تأجيلها الى مالا نهاية . ولكنني سأسرع لزيارتك بمجرد أن أعود .

ـ وهل ستغيب كثيرا ؟

ـ كلا . بضعة أيام فقط . لن تحتاج الى على كل حال .

ـ سأتصل بك ثانية ... كنت أود أن تحضر الجنازة .

كان جيفين لا يزال يتنفس بصعوبة كما لو كان قد جرى شوطا كبيرا . وقال فلافيير في اخلاص .

ـ انني أرثي لك يا عزيزى بول .

وأردف يقول وقد خفّت من صوته : هل تشوهت كثيرا ؟

ـ طبعا ... وخصوصا وجهها .. لو إنك رأيته ..

ـ تشجع يابول ... أنا أيضا لى احزاني .

أعاد السماعة الى مكانها ومضي الى فراشه وهو يترنح ويقول : انا أيضا .. أنا أيضا .. وما هى الا لحظات حتي استغرق في النوم .

وفي اليوم التالى استقل أول قطار الى أورليان . لم يجد الجرأة على أن يستقل سيارته . لم تكن انباء الجبهة مشجعة وكانت الجرائد تصدر بالعناوين الضخمة مثل (صد الهجوم الألماني)

(معارك عنيفة حول ليبج) ، ولكن النشرات الرسمية كانت مبهمة وغير صريحة . وجلس فلافيير في ركن المقصورة . كان يبدو سليما معافا ولكن كيانه الداخلي كان محطما مهزوزا كما لو كانت قد شبت فيه النار . لم يكن غير اطلال ... أربعة جدران حول كومة من الانقاض . كانت هذه الصورة تغذى ألمه وتجعله محتملا وبدأ يحترم محنته . وفي أورليان نزل بغرفة في فندق متواضع أمام المحطة .. وعندما هبط ليشترى علبة سجاير رأى الأولى التي تحمل اللاجئين .. سيارة بويك كبيرة مشحونة بالصناديق ويغطيها التراب ويرقد بداخلها بعض النسوة . وذهب لزيارة عميلة ولكن حديثهما كله دار عن الحرب . وفي المحكمة ترددت الأنباء بأن جيش كوارب يتقهقر متخليا عن بعض أراضيه ورموا البلجيكيين باللوم لخوفهم وتكلموا كذلك عن مدفع المارن الكبير الذى ظل يدوى في الأفق ثلاثة أيام كاملة . طابت له الاقامة في اورليان . كان يتمشي في المساء حول الميناء وينصت لتغريد العصافير وهى تنفر الماء البنفسجي في حين كان صوت الراديو يرتفع في جميع البيوت وفي شرفات المقاهى من وقت الى آخر والناس يتكلمون عن الحرب في انفعال ... ماذا يدور في باريس ؟ .. هل دفنت مادلين ؟ .. وهل سافر جيفين الى الهافر ؟ .. كان فلافيير يلقي على نفسه هذا السؤال أحيانا في حذز مثلما يفعل الذى يرفع ضمادته ليفحص جرحه ... نعم ... كان لا يزال يتألم . لم يندمل جرحه ... نعم ... كان لا يزال يتألم . لم يندمل جرحه بعد ولن يندمل .. سيظل يدمى الى الابد .. ولكن لحسن الحظ أن الحرب جاءت فألهته عن مصابه انهم يقولون الآن أن الفرق المصفحة الألمانية تندفع نحو اراس . وان مصير المدينة يتأرجح في كف

القدر . وكانت عربات أخرى تدخل المدينة كل يوم وتعبر الجسر في طريقها الى الجنوب . وكان الأهالى ينظرون اليها في صمت بقلوب واجفه وهم يتساءلون هل يأتي دورهم عن قريب . ووجد فلافيير في كل مكان ما يذكره ببلواه ، لكنه لم يجد الجرأة على العودة الى باريس.

وقعت عيناه على الخبر صدفه واتفاقا . كان يقرأ الجريدة شارد الذهن وهو يرشف فنجانا من القهوة وفجأة طالعه العنوان في الصفحة الرابعة .. كان رجال الشرطة يواصلون التحقيق في موت مادلين ويستجوبون جيفين .

كان يبدو أنهم استبعدوا فكرة الانتحار .. وقد اذهله هذا النبأ وراح ينعت رجال الشرطة بالغباء والحماقة فقد كان يعلم أن جيفين بريء . سيذهب ويقول لهم ذلك ... حالما يتحسن الموقف . أما الآن فان القطارات لا تسير بانتظام وتتأخر كثيرا في الطريق . ومرت أيام أخرى وكرست الجرائد كل صفحاتها للمعركة العنيفة التي تدور في سهول الشمال ولم يعد أحد يعرف أين الألمان وأين الفرنسيون وأين الإنجليز والبلجيكيون ؟ .. ولم يعد فلافيير يفكر في جيفين الا قليلا ، ومع ذلك فقد عول على أن يذهب فيطلعهم على الحقيقة في أول فرصة . وأعاد اليه هذا القرار شيئا من ثقته في نفسه واستباح لنفسه أن يشارك الجميع انفعالاتهم فحضر حفل القداس الذى أقيم في الكاتدرائية تكريما لجان دارك وصلى من أجل فرنسا ومن أجل مادلين . ولم يعد يفرق بين الكارثة القومية وكارثته هو فأن فرنسا بالنسبة له لم تكن غير مادلين المهشمة الدامية بجوار برج الكنيسة . ثم جاء دور أهالى أوليان فحملوا مراتبهم فوق عرباتهم وغادروا المدينة . واختفي عميل فلافيير ،

وقيل له « اذا كان لا يربطك هناك شيء فمن الأوفق أن تذهب الى الشمال » . وفي طفرة من الشجاعة حاول أن يتصل بجيفين ولكن لم يرد على مكالمته احد . وضرب الألمان محطة سان بيير بالقنابل فركب أوتوبيسا كان منطلقا الى تولوز ولم يدر أنه مرتحل لمدة أربع سنوات .

القِسمُ الثانِي

الفصل الأول

قال الطبيب بعد أن أتم الكشف على فلافيير: هل أنت متزوج ؟

ـ كلا . انني أعزب ... عائد من افريقيا .

ـ هل كنت اسيرا ؟

كلا .. غادرت فرنسا سنة ١٩٤٠ ولم أكن لائقا للخدمة العسكرية بسبب التهاب في الرئة أصبت به سنة ١٩٣٨ .

ـ وهل تنوى الاقامة في باريس ؟

ـ لا أدرى ... أن لى مكتبا للاستشارات القانونية في داكار ولكنني أفكر في استعادة مكتبي بباريس .

ـ هل أنت محام ؟

ـ نعم غير أن مسكني مشغول وليس من السهل العثور على مسكن الآن .

أخذ الدكتور يدعك اذنه وهو ينظر الى فلافيير وكان هذا يحاول أن يربط ربطة عنقه في شيء من الانفعال .

ـ انك تشرب الخمر ، اليس كذلك ؟

هز فلافيير كتفيه : هل الأمر واضح الى هذه الدرجة ؟

أجاب الطبيب : هذا شأنك أنت .

وقال فلافيير معترفا ـ نعم . انني أشرب في بعض الأحيان ، فالحياة لا تدعو الى البهجة .

أتي الطبيب باشارة مبهمة من يده ثم جلس الى مكتبه وأخذ قلمه وقال :

ـ أن صحتك لا تسر ، وأنت بحاجة الى الراحة والاستجمام . لو كنت مكانك لذهبت الى الجنوب .. نيس .. أو كان .. أما هواجسك .. فإنه يجب عليك أن تعرض نفسك على أخصائي . سأكتب لك كلمة لصديقي بالار .

تمتم فلافيير : اذن فأنت ترى أن حالتي خطيرة ؟

ـ اذهب لاستشارة بالار .

وجرى القلم على الورق . وأخرج فلافيير بضعة اوراق مالية من حافظته في حين قال الطبيب وهو يكتب :

ـ اذهب الى مكتب التموين بهذه الشهادة ليعطوك مزيدا من اللحم والدهنيات . ولكنك بحاجة ايضا الى الدفء والراحة قبل كل شيء . تجنب المتاعب والمشاكل لا تكتب ولا تقرأ . الأجر ثلاثمائة فرنك . قال ذلك وهو يسبق فلافيير الى الباب ليستقبل مريضا آخر . هبط فلافيير السلم وقد تملكه الاستياء . بالار اخصائي ... طبيب نفسني ، ويدفعه الى الافضاء بكل اسراره ويحمله على الاعتراف بكل ما يعرفه عن موت مادلين .. هذا محال ...

انه يفضل أن يعيش مع هواجسه وكوابيسه وأن يهرب كل ليلة مع أحلامه في سراديب معقدة لا يسكنها غير الحيوانات والحشرات وان يظل يبحث عن شخص في الظلام ، أى شخص ...

رفع ياقة معطفه وتوجه الى ميدان دى تيرن . لم يعد يعرف باريس فقد كانت لاتزال غارقة في ضباب الشتاء ، وكانت شوارعها مقفرة لا يمر بها غير عربات الجيب . وأحس بشيء من الضيق وهو يرى نفسه مرتديا ثيابا أنيقة ، فأخذ يمشي بخطوات

واسعة كباقي المارة ، اذ أن التسكع ترف ، وكان قوس النصر يبدو من بعيد بوابة غير واضحة المعالم ، وكان كل شيء يعيد اليه الماضي بكل ذكرياته ، فلماذا عاد وماذا يتوقع ؟ أنه عرف نساء كثيرات غيرها والتأمت الجروح ، ومادلين نفسها لم تعد حتي شبحا .

دخل فلافيير ديبون وجلس بجوار النافذة ولم يكن بالمقهى غير قليل من الضباط ، ولم تكن تسمع فيه سوى صوت الغلاية . واقبل عامل المقهى عبوسا متجها أخذ يتأمل أناقة فلافيير وحذاءه الثمين المصنوع من جلد الغزال والكريب وخاطبه هذا قليلا :

ـ كأس من الكونياك ... المعتق ! .

كان يعرف كيف يتكلم بصوت خافت سريع في المقاهى والمطاعم ، الأمر الذى يضفي عليه قدرا كبيرا من المهابة ولا شك في أن ذلك كان السبب في كل ما كان يعانيه من آلام . جرع الكأس دفعة واحدة وقال :

ـ لابأس ... أعطني كأسا آخر .

والقي بعض الأوراق المالية أمامه ، وهي عادة أخرى اكتسبها من داكار . كان يلقي بأوراق النقد المجعدة في ضجر كما لو كان عائدا من آخر العالم وكما لو كان كل الناس يدينونه بدين لا يستطيع سداده عقد ذراعيه متأملا الشراب الذى كان ينبه الأشباح . كلا . أن مادلين لم تمت ابدا ، فمنذ أن هبط الى المحطة لم تكف عن ازعاجه . هناك وجوه ينساها المرء ... وجوه تتلاشي أو تتجمد ويمضي عليها الزمن كانها التماثيل الصخرية فتتغير صورتها شيئا فشيئا وتفقد شخصيتها . أما مادلين فكانت ماثلة أمام عينيه دائما أبدا .. شمس الماضي تسطع حولها كما لو كانت هالة ... أما

الصورة الدامية ... صورتها في المقبرة فقد زالت ولم تعد غير ذكرى لحوحه من السهل اقصاؤها هى الاخرى ، أما صورها ، فكانت حديثه جديدة فاتنه كلها . اطبق فلافيير يده على الكأس ولم يتحرك . أحس بحرارة شهر مايو ورأى انطلاق العربات حول قوس النصر ، ورأى مادلين قادمة وحقيبتها تحت ابطها والغلالة الخفيفة تحجب عينيها فتبدوان كما لو كانتا خضبتين ، ثم ها هى تنحني فوق حاجز الجسر وتتخلى عن الزهرة الحمراء ... وتمزق الخطاب الذى راحت اشلاؤه تتطاير في الفضاء . شرب فلافيير كأسه واعتمد بمرفقيه على المنضدة في تثاقل .. لقد تقدمت به السن الآن وبدا عجوزا ... فماذا ينتظره ؟.. الوحدة .. المرض .. ان الاحياء يحاولون جمع انقاض بيوتهم وتجديد صداقتهم وبناء مستقبلهم . أما هو فلم يعد أمامه غير الرماد ينقب فيه ... لماذا يتخلى اذن عن ؟...

ـ كأس آخر .

طلب فلافيير الكأس الثالثة وقرر أن يكتفي بها فهو لا يحب الخمر ولكنه يحاول اشعال الجمرة الصغيرة التي تتقد في أعماقه والتي لا تلبث أن تولد فيه قليلا من الأمل ... جرع الكأس . وجعله الهواء البارد يسعل ولكن المدينة لم تعد تفزعه . كانت تبدو خلف بخار أنفاسه صورة منعكسة على صفحة الماء كما لو كانت مدينة النجمة وتظاهر بأنه ينتظر فوق الرصيف .. أنها لن تأتي ... ولعل جيفين هو الآخر قد غادر باريس ... واتجه الى شارع كليبر وبحث بعينيه عن البيت . كانت نوافذ الطابق الثاني مغلقة ، ولا مراء في أن السلطات الحربية قد استولت على السيارة التالبوت .. ولكن اللوحات ؟.. المرأة الحاملة فوق المدفأة وعصافير الجنة ؟... ماذا

حدث لكل هذا... ودخل بوابة البيت فرأى امرأة تكنس فسألها :

ـ مسيو جيفين من فضلك

ـ مسيو جيفين ؟

نظرت المرأة اليه دون أن يبدو عليها أنها فهمت ولكنها لم تلبث أن قالت :

ـ المسكين... انه مات منذ مدة كبيرة .

فتمتم فلافيير : مات بول ؟

ما الجدوى من الاستمرار اذن... انه لن يجد الا الموت في كل ولا شيء غير الموت خطوة . وقالت المرأة :

ـ تفضل .

وفتحت باب مسكنها . وقال فلافيير : انني غادرت فرنسا في سنة ١٩٤٠ .

ـ هذا هو السبب اذن .

كان هناك رجل مسن يجلس بجوار النافذة يتأمل من خلال نظارته حذاء يمسكه في يده فقال فلافيير :

ـ أرجو أن لا أتسبب في ازعاجك .

فقال الرجل متذمرا : حتي الورق المقوى لا نجده لكى نرقع به أحذيتنا .

وعادت زوجته تقول : هل كنت صديقا لمسيو جيفين ؟

ـ صديق من أصدقاء الطفولة . كان قد اتصل بي تليفونيا يبلغني بموت زوجته ، ولكنني اضطررت الى مغادرة باريس في نفس اليوم .

ـ يا له من مسكين... انه لم يجرؤ على العودة وحده الى

هناك ... ولم يجد احدا يسانده في محنته فرافقته أنا ، وألبست المرأة المسكينة ثيابا أخرى غير التي تمزقت لأنك لاشك تعرف ...

وأوشك فلافيير أن يسألها : أى ثوب ألبستها ؟ .. أهو التايير الرمادى ؟

ـ وقالت المرأة : تفضل بالجلوس .

ـ سمعت عرضا أن الشرطة قد أزعجته .

ـ أزعجته .. بل قل أنهم أوشكوا أن يلقوا القبض عليه .

بول ... يلقون القبض على بول ؟ ... ولكن ... أحسب أن زوجته انتحرت .

ـ أنها انتحرت ما في ذلك شك ولكنك تعرف رجال الشرطة أن الرجل المسكين كان له حاسدون كثيرون .. وعندما يبدأ رجال الشرطة في التنقيب عن حياة الناس ... انهم جاءوا هنا مرارا وألقوا أسئلة كثيرة لا نهاية لها عنه وعن زوجته ... هل كان جيفين بالدار يوم المأساة .. يا الهي ! ... هل تتذكر يا شارل ؟

وكان العجوز يقطع بسكين المطبخ نعلا لحذائه من صندوق الورق المقوى فقال :

ـ نعم .. لقد أقاموا الدنيا واقعدوها .

وسألها فلافيير :

ـ ولكن كيف مات مسيو جيفين ؟

ـ قتل في الطريق على مقربة من مانس ، فقد هبط ذات صباح وهو في شدة الانفعال وقال : انني سأغادر البلد . اذا أرادوا القبض على فما عليهم الا أن يتبعوني ... وألقى بعض الحقائب في عربته ورحل . وقد عرفنا ماحدث فيما بعد أمطرته طائرات العدو بالرصاص ومات المسكين وهو في طريقه الى

المستشفي .. لاشك في انه لم يكن يستحق هذه الميتة الشنيعة .
حدث فلافيير نفسه فقال :
ـ لو أنني كنت هنا لما كان بحاجة الى الرحيل ولما هاجمته طائرات العدو ، ولكان في مقدوري الآن أن أتكلم معه الآن وأن أفسر له ...
وضغط على يديه ... لم يكن ينبغي أن يعود واستطردت المرأة :
ـ لقد جانبها الحظ . ومع ذلك كانا متفاهمين كل التفاهم .
ـ ألم تكن تشكو مرضا ما .
ـ كلا . ولكنها كانت حزينة نوعا ما ، ترتدى الثياب الداكنة دائما ـ على أن هذا كان طبعها .. وعلى العكس كانت تغتبط كثيرا اذا ما تمكنت من الخروج معه .
تدخل العجوز فقال :
ـ ولم يكن هذا ليحدث كثيرا .
وقال فلافيير :
ـ وأين دفنت ؟
ـ في مقبرة سانت أوين . غير أن القدر طاردها حتي في مثواها الأخير. فعندما أطلق الأمريكان القنابل على لا شابل أصابت بعضها المدافن فقلبتها رأسا على عقب ، وقد عثروا على أحجار وبقايا عظام في كل مكان تقريبا .
ارتعش فلافيير تحت معطفه الذى تغطى ياقته المرفوعة كل وجهه تقريبا . وهمس :
ـ اذن .. فقبرها ؟
ـ لم تعد هناك قبور في تلك الناحية . انهم ساووا الأرض وسدوا الحفر.

كانت الدموع هى الوسيلة الوحيدة التي لجأ اليها فلافيير ليبعد عن خاطره تلك الصور البشعة التي بدأت تتراءى له .. لقد انتهى كل شيء وتلاشت مادلين .. احترقت بقاياها مع انفجارات القنابل وتطاير رمادها في الفضاء ... هذا الوجه الذى مازال يلاحقه لم يعد سوى ذكرى .. لم يعد شيئا ... لابد أن يستعيد صورته في ذهنه وأن يحرره من العدم .

وسألها : والمسكن ؟

ـ مغلق في الوقت الحاضر . وقد ورث البيت قريب من أقربائها البعيدين . كل هذا محزن كما ترى .

فقال فلافيير : نعم .

ـ ونهض واقفا وضم معطفه حوله حين قالت المرأة :

ـ انني أفهم ما تشعر به . فالانسان هكذا دائما عندما يسمع عن موت صديق من اصدقائه فجأة .

كان العجوز يدق بعض المسامير ليثبت النعل الجديد بحذائه . وأسرع فلافيير الى الشارع وهو يكاد يركض وكسا الندى وجهه بقناع لزج وأحس أن الحمى ستجتاحه من جديد وتسرى في أوصاله . أسرع يعبر الشارع ودخل المقهى الصغير الذى جلس فيه مرة قبل ذلك في انتظار مادلين وقال للساقي متوسلا :

ـ اعطني شرابا قويا .

ـ بكل سرور . يبدو لى يا سيدى أنك تتألم ... هل آتيك بكأس من الويسكى ؟

أحضر له الجرسون كأسا من الويسكى تجرعه فلافيير في نهم وسرعان ما تدفقت في شرايينه موجة من الحرارة وتفتتت ما كان يشعر به من قلق أخذ يتحول الى حزن هادىء . لقد كان الطبيب

على حق . أنه بحاجة الى الراحة والى الدفء والشمس . بل هو بحاجة الى الراحة قبل كل شيء . لا يجب أن يفكر في مادلين بعد الآن . لقد أتي الى باريس وفي نيته أن يضع باقة من الزهور على قبرها ولكن القبر لم يعد له وجود الآن ، وهذا أفضل . فقد انفصم الآن الرباط الأخير وانتهى به المطاف الى هذا المقهى أمام هذه الكأس المملوءة الى النصف . أما كل ما سبق أن أحبه ... أما غادة التوليب ، تلك المرأة لم تلبث أن عادت اليها ... كل ذلك انتهى به أمام هذه الكأس من الويسكى ... حلم استوعبه في لحظة من الثمالة ... ولكن لا ... لم يكن حلما ... والدليل على ذلك هذه القداحة . وضع فلافيير سيجارة بين شفتيه وأخذ القداحة الذهبية وقلبها بين يديه واحتفظ بها لحظة في راحة يده .. هل يجب أن يطوح بها ويلقي بها بعيدا عنه ... سوف يفعل ذلك فيما بعد . أما الآن .. ازاح الكأس الفارغة ومنح الساقي منحة كبيرة فوق أجره كان يجب أن يرى أمارات الدهشة ترتسم على اصحاب الوجوه الذليلة وسأله : هل استطيع العثور على سيارة أجرة .

فأجابه الساقي : لن يكون ذلك سهلا ... هل تريد الذهاب الى مكان بعيد ؟

ـ على مقربة من مانت .

ـ سوف أحاول على كل حال .

وأجرى بضع مكالمات تليفونية وهو لا ينقطع عن الابتسام لفلافيير. ثم ألقي السماعة أخيرا وقال :

ـ سيأتي جوستاف بعد لحظات .. ربما يطلب منك مبلغا مرتفعا فالبنزين غال جدا في السوق السوداء .

وأقبلت سيارة الأجرة ، وهي سيارة عتيقة ويتعالى منها صوت محركها بدرجة مزعجة . أوضح فلافيير للسائق ما يريد قائلا :

ـ سنذهب الى شمال مانت ، بين سايي ودروكور ... هناك قرية صغيرة بها كنيسة ذات برج عالى ... سأرشدك اليها ... سأرشدك اليها ... ثم نعود من أقصر طريق .. لن أبق هناك مدة طويلة .

وانطلقا . وطرق الشتاء لا تحكي سوى قصة كئيبة حزينة ... قصة معارك ودمار يتخللها اطلاق النار والقاء القنابل . كان فلافيير يجلس في ركن من العربة وقد سرت البرودة في أعطافه وراح ينظر من خلال الندى الذى يكسو الزجاج الى الحقول السوداء التي تطويها السيارة على جانبيها ويحاول عبثا استعادة ذكرى الأشجار المورقة والمنحدرات البيضاء التي تغطيها زهور اللؤلؤ . كانت مادلين في هذه المرة تبتعد ويطويها الموت ... حاول ان يقوم بمجهود أخير ... كان يعلم علم اليقين أن قلبه لم يتعلق بها حقا لم ير ما في سريرته في وضوح وجلاء تامين كما رآه في هذه اللحظة . وراح يشرب الخمر لا ليجبر هذا الشاهد اللحوح الساخر الطابع في داخليته على السكوت ، ذلك الشاهد الذى ما فتىء يهزأ به ويتهمه بأنه يروى لنفسه قصصا من وحى الخيال وينسخ لنفسه مرائي ليرضي بها حبه للوحدة والعجز . ولكن كان لابد له من مزيد من الكؤوس الصغيرة ليبعد هذا الشاهد المدقق ويطوح به الى العدم . وعندما كان الخدر يسرى في جسده ويتسلل الى رأسه تظهر له مادلين برقتها وحلاوتها فتحدثه عن الحياة التي كان يمكن أن تحياها معه . وعندئذ كان فلافيير يشعر بفرط السعادة . أما فلايير الآخر فيولد من جديد مع كل صباح ممتلئا مرارة وحقدا .

صاح جوستاف : هاهي سايي .

مسح فلافيير الزجاج بطرف اصابعه وقال :

ـ انعطف الى اليمين ... ان الكنيسة تقع على بعد كيلو مترين أو ثلاثة على الأكثر ـ وانطلق التاكسي في طريق مملوء بالاخاديد ، وكانت الأشجار قد اكسبها المطر سوادا وراح الماء يقطر منها فوق أكوام من الأوراق الميتة . ومن وقت لآخر يظهر بيت يتصاعد منه دخان أزرق .

وبعد لحظات قال جوستاف : انني أرى برجا عاليا للأجراس .

ـ هذا هو ذا المكان ... قف أمام الكنيسة وانتظرني ريثما أعود .

دار التاكسي تماما كما حدث في المرة السابقة . وهبط منه فلافيير ورفع راسه ناظرا الى أعلا البرج . لم يكن يشعر بأى انفعال ولكنه كان يحس بالبرد بصورة غريبة ، فابتعد بحثا عن البيوت التي رأى أسطحها عندما كان يكافح للتغلب عن دواره . اثنا عشر بيتا عتيقا تمرج من حولها أسراب الدجاج ، وفي بين منها حانوت منخفض له واجهة تحمل في أعلاها حروفا مطموسة وتنبعث بطاقات بريدية أصفر لونها . وخرجت امرأة عجوز تسأله قائلة :

ـ هل تريد شيئا ؟

فسألها فلافيير : الا أجد عندك بعضا من البيض أو اللحم ؟ .. انني مريض ولا أجد هذه الأشياء في باريس .

ولم تكن لهجته مقنعة وكذلك لم يكن متواضعا بما فيه الكفاية . وأدرك أنها سترفض أن تبيعه شيئا مما طلب . أخذ

يفحص البطاقات في شيء من التردد ثم قال :

ـ لا بأس . سأبحث في مكان آخر ، ولكنني سأشترى هذه البطاقة على كل حال ... كنيسة سان نيكولا ... أن هذا الاسم يعيد الى ذهني شيئا ... أذكر أن الجرائد ذكرت شيئا عن حادث انتحار في سنة ١٩٤٠ .

ـ هو ذلك ... وقعت امرأة من أعلى البرج .

ـ تماما ... انني اتذكر الآن انه رجل من رجال الأعمال في باريس .. أليس كذلك ؟

نعم . مدام جيفين . انني مازلت اذكر اسمها ، فأنا التي اكتشفت جثتها ... لقد وقعت أشياء كثيرة منذ ذلك اليوم ... ولكنني لم انس هذه المرأة المسكينة .

ـ قال فلافيرر : ـ الا أجد عندك قليلا من الخمر ... انني اشعر بالبرد دائما .

ورفعت اليه عينان شاهدتا الحرب وجزره فأفقدتهما تلك القدرة على التعبير ، وقالت :

ـ ربما .

دس فلافيير البطاقة في جيبه وألقي فوق الطاولة بضعا من قطع النقود في حين ذهبت المرأة لتبحث عن زجاجة وكأس . وكان النبيذ من نوع ردىء كوى حلقه ولكنه لم يشلك وتمتم يقول :

ـ انه لأمر غريب أن تفكر امرأة في القاء نفسها من فوق الجرس .

وأخفت المرأة يديها تحت مئزرها في بطء ولعلها لم تستغرب هذه الفكرة لأنها قالت :

ـ كانت على يقين من أنها ستلاقي حتفها فان البرج شاهق

الارتفاع وقد وقعت على قمة رأسها .

خفق قلب فلافيير ولكنه لم يحس بأى ألم . أحس فقط بأن مادلين بدأت تبتعد عنه وأنها تدمر نفسها بطريقة نهائية .. كانت كل كلمة من كلمات المرأة العجوز كأنها حفنة من التراب تنهال فوق قبر لم يزل مفتوحا ..

ـ واستطردت المرأة تقول :

ـ كنت وحدى في القرية ... لم يكن هناك أحد فقد جند جميع الرجال وانتقلت النساء الى الحقول . وفي الساعة السادسة ذهبت الى الكنيسة لأصلى من أجل ابني الذى تطوع .

امسكت المرأة لحظة . كانت تبدو أقصر مما هى بثيابها السوداء ، واستطردت تقول :

ـ خرجت من الباب الخلفي للكنيسة ... فالطريق من المدافن الى بيتي أقصر ... وفي هذه اللحظة رأيتها ... وكان لابد لى من وقت كبير لكى أبلغ رجال الشرطة .

ونظرت الى الدجاج الذى كان يلتقط طعامه حول عتبة الباب . لاريب في أنها تذكرت الخوف والتعب الذى قاسته ذلك المساء ثم ما كان من إبلاغ رجال الشرطة و قدومهم وتنقلاتهم عبر المدافن والمصابيح الكهربائية تضيء الأرض فاحصة منقبة ، وبعد ذلك الزوج ومنديله أمام فمه ...

قال فلافيير : مواسيا : كانت لحظات شاقة ...

ـ نعم . وخصوصا أن رجال الشرطة ظلوا يترددون علينا أكثر من اسبوع ... لقد توهموا أن شخصاً ما ألقي بالمرأة المسكينة من فوق البرج .

ـ ألقي بها من فوق البرج ؟ ... ولماذا ظنوا ذلك ؟

ـ لأن بعض الناس رأوا بعد ظهر ذلك اليوم ، وعلى مقربة من سايي رجلا وامرأة ، في سيارة تنطلق في طريقها الى الكنيسة .

اشعل فلافيير سيجارة . هذا هو السبب اذن . لقد رآه بعض الشهود فحسبوه الزوج وأدى هذا الخطأ بجيفين الى الموت .

ما الفائدة من الاحتجاج الآن . وماذا يجنيه اذا هو أوضح لهذه العجوز أن الرجل لم يكن بجيفين وأن كل ذلك لم يكن غير غلطة شنيعة . ان هذه القصة لم تعد تهم احدا . ولكنه افرغ كأسه وبحث عن شيء آخر ليشتريه ولكن لم يكن هناك غير المكانس والدوبارة والحطب فقال :

ـ انني أشكرك من أجل النبيذ .

وخرج وألقي بسيجارته التي جعلته يسعل . قليلا وأمام الكنيسة . هل يجب أن يقف مرة أخرى أمام المحراب وان يركع فوق المقعد الذى صلت فوقه ؟ ولكن ألم تذهب صلاتها عبثا ؟ ألم تتلاشي في الفضاء ؟ فكر في العقيدة المسيحية فيما يختص ببعث الأجساد .. كيف يمكن أن يبعث من جديد جسد مادلين ، بعد أن تحول الى ذرات تناثرت وامتزجت بالطبيعة وعناصرها . فتمتم يقول وهو يتأمل الصليب الذى تنعق الغربان حوله ، « وداعا يامادلين » .

وسأله السائق : هل نعود .

ـ نعم .

عندما بدات سيارة الأجرة تدور دورتها وهو يرى من خلال زجاجها الخلفي البرج وهو يبتعد إن الماضي هو أيضا يرتد ويختفي الى الأبد . أطبق عينيه وأخذته سنة من النوم لازمته حتي بلغ باريس .

وبعد الظهر زادت الهواجس فلم يسعه سوى أن يذهب الى الدكتور بالارو يروى له قصته كما لو كان يعترف أمام القسيس . ولكنه حرص على ألا يذكر اسم جيفين ، أو ما انتهت اليه اجراءات التحقيق . وكان يتكلم بصعوبة ويتحدث وهو يكاد يبكى .

وقال له الطبيب النفساني :

ـ انك ماتزال تبحث عنها في قرارة نفسك وترفض التسليم بأنها ماتت .

فقال فلافيير محتجا : ليس الأمر كذلك . أنها ماتت طبعا ، وأنا على يقين من هذا ولكني أفكر في ... وهذا سخف طبعا .... أفكر في ام جدتها بولين لاجرلاك ... انك تدرك ما أعني على كل حال ... لم تكن هى وأم جدتها غير شخص واحد .

ـ تعني أن تقول إن مادلين هذه سبق أن ماتت قبل ذلك مرة .. أليس كذلك ... هل هذا هو اعتقادك حقا ؟

ـ ليس هذا اعتقادك يا دكتور ... انني على يقين مما سمعت ومما رأيته بنفسي .

ـ صفوة القول أنت تعتقد أن في مقدور مادلين أن تعود الى الحياة بما أنها سبق أن تغلبت على الموت قبل ذلك .

ـ ما دمت تصور الأمور بهذه الطريقة ... نعم .

ـ انهما واضحتان في ذهنك طبعا وتحاول أن تميز بينهما .. أرجو ان تتمدد على هذا الفراش.

وبعد أن فحصه الدكتور فحصا دقيقا ، قطب مابين حاجبيه وقال :

ـ هل كنت تشرب الخمر قبل ذلك ؟

كلا . بدأت أشرب في داكار شيئا فشيئا .

ـ ألم تتناول شيئا من المخدرات ؟

ـ كلا . أبدا .

ـ هل تريد الشفاء حقا ؟

فتمتم فلافيير : طبعا .

ـ كف عن الشراب اذن .. وانس هذه المرأة ... وقل لنفسك أنها ماتت حقا ... فان المرء لا يموت غير مرة واحدة ولا يعود الى الحياة أبدا ... هل تسمع ... افعل ما أقول لك انْ كنت تريد الشفاء ولا تتردد . سأعطيك كلمة لزميل لى يدير مصحة في نيس .

ـ أرجو ألا يحتجزوني هناك !

ـ كلا طبعا .. فأنت لست مريضا الى هذا الحد . انما أبعث بك الى هناك بسبب الطقس فانك بحاجة الى الشمس والى الهدوء . هل معك ما يكفي من المال ؟

ـ نعم .

ـ انك بحاجة الى وقت طويل .

ـ يمكنني أن أبقى .

ـ حسنا .

جلس فلافيير وهو يحس بساقيه رخوتين لاتقويان على حمله . لم يعد يهتم بكلمات الطبيب ولا بحركاته هو بالذات . كان يتمتم في غير انقطاع : الشفاء ... الشفاء ... وندم لأنه أحب مادلين كما لو كان هذا الحب جريمة . آه . انه يريد أن يعيش وأن يبدأ من جديد ويعاشر النساء بعد أن يشفي ويكون مثل غيره من الرجال ... وعاد الطبيب يكرر توصياته ونصائحه . ورضي فلافيير

بكل شيء ووعده بكل شيء . نعم سيسافر هذا المساء بالذات وسيكف عن الشراب ... نعم سوف يخلد الى الراحة ... نعم ... نعم .

وسألته الممرضة :

ـ هل أفضل أن امشي قليلا .

وقصد مكتبا للسياحة . وأخبره الموظف المختص بأن جميع القطارات كاملة العدد طوال أيام الأسبوع ولكن عندما أخرج فلافيير محفظته استطاع الحصول على تذكرة السفر في نفس الليلة ولم يعد أمامه ألا أن يفرغ من بضع مكالمات تليفونية ليسوى اموره الشخصية والمصرف . واذا انتهى من كل ذلك أخذ يضرب في المدينة على غير هدى . كان يجب أن يستقل القطار الذى يغادر باريس في الساعة التاسعة . وبعد ان تناول طعامه في الفندق رأى أنه لايزال أمامه أربع ساعات فدخل احدى دور السينما غير مهتم بالبرنامج . وكان لا يبغى شيئا الا أن ينس زيارته لبالار وأسئلة بالار .. لم يصدق ابدا انه في طريقة الى الجنون ولكنه كان خائفا يتصبب عرقا ويريد أن يشرب بأى ثمن ... بلذا يمقت نفسه .

وانطفئت الأنوار في القاعة وارتفعت الموسيقي الصاخبة التي تسبق جريدة الأخبار ... زيارة الجنرال دى جول الى مدينة مارسيليا ... جنود وأعلام ورجال شرطة وجماهير غفيرة محتشدة فوق الطوار ... ووجوه تظهر بعرض الشاشة وأفواه مفتوحة تصرخ وتهتف مرحبة بقدوم البطل ، ورجل يهز قبعته وامرأة تتحول في بطء وتدير وجهها الى عدسة الكاميرا .. ورأى عينيها الصافيتين ووجهها النحيل الذى يشبه احدى لوحات لورنس .. ولم تلبث أن اختفت ولكن فلافيير كان قد تعرف عليها فهب واقفا وهو ينظر

الى الشاشة في رعب .

وصاح صوت خلفه يقول : اجلس ... اجلس ياهذا .

فلك فلافيير ربطة عنقه طلبا للهواء ودارت رأسه وغامت الدنيا أمام عينيه واحتبست الصيحة في حلقة . وجعل ينظر من غير أن يفهم الى القبعات والصيحات والهتافات ... وامتدت يد قاسية فأرغمته على الجلوس .

(٢)

كلا . لم تكن هى .. شهد فلافيير الحفلة التالية وأجبر نفسه على النظر الى الشاشة في برود وانتظر ظهور الوجه ، مركزا كل اهتمامه لالتقاط الصورة وتسجيلها في ذهنه . وظهرت الصورة لحظة خاطفة فتأوه جزء من كيانه في حين لم يتأثر الجزء الآخر. انه اخطأ طبعا فان امرأة الشاشة تبلغ الثلاثين من عمرها وتبدو بدينة شيئا ما ... ثم أن فمها ... كانت الشفتان تختلفان عن شفتي مادلين ومع ذلك فقد كان الشبه غريبا .. ولا سيما المقارنه بين الذكرى القديمة والرؤية الحديثة .. وانتهى به الأمر الى الشك وعدم اليقين وشهد الحفلة المسائية مفوتا على نفسه موعد القطار معللا النفس بأنه سوف يستقل قطار الغد . وفي هذه المرة اكتشف شيئا فان الرجل الذى يظهر وجهه كله في المنظر السابق لها كان يبدو أنه يرافقها . ولعله زوجها أو صديقها . وكان يمسكها من ذراعها لكى لا يفقدها بين الجمهور من غير شكٍ . وثمة شيء آخر لم يلحظه فلافيير من قبل ، ذلك أن الرجل كان انيقا جدا يزين ربطة عنقه بلؤلؤة كبيرة . أما المرأة الغريبة فكانت ترتدى معطفا

من الفرو .. ولاحظ فلافيير شيئا آخر ولكنه لم يستطع تحديده بالذات ... وخرج في هذه المرة بعد جريدة الأخبار على الفور وكان النور ضعيفا في الشارع والمطر ينهمر فغطى رأسه بقبعته ، وأعادت هذه الحركة الى ذهنه الشيء الذى لم يستطع تحديده فقد كان الرجل عارى الرأس على الرغم من أنه كان يرتدى معطفه وخلفه واجهة فندق ظهر في الصورة من اسمه ثلاثة حروف هى ... ريا .. ولم يكن هناك ريب في أنها بقية اسم الفندق الذى يضاء بالنيون ليلا ، ولعل هذا الاسم هو استوريا أو شيء من هذا القتيل ... حسنا ... وبعد ... لاشيء وطاب لفلافيير أن يستعيد في ذهنه الصورة المرة بعد المرة .. ولا عجب في ذلك فقد كان من دأبه التحرى والاستقصاء وأدرك أن الرجل والمراة خرجا لمشاهدة موكب الرئيس . أما هذا الشبه العجيب . نعم .. ان هذه المرأة تشبه مادلين شبها غريبا حقا ولكن ... ليس هذا سببا لكى يتملكه كل هذا الانفعال .. ان في مرسيليا رجلا سعيدا بالقرب من امرأة ... ولكنه سوف يرى قوما سعداء كثيرين من الآن فصاعدا ، ولابد له من التعود على ذلك حتي ولو كان فيه تعذيبا له . وتوقف فلافيير أمام بار الفندق .... انه وعد الطبيب طبعا ولكنه بحاجة الى كأس ليبعد عنه أوهامه .

تجرع ثلاثة كئوس وهو يقول لنفسه انها لن تؤذيه لأنه سوف يعني بنفسه بعد ذلك كل العناية . وكان الويسكى أشد تأثيرا من الكونياك وأكثر فاعلية فقد أبعد المسرات والشكوك والضغائن وبقي احساس غامض بالظلم وهو احساس لا يمكن أن تتغلب عليه الخمر مهما بلغت حدتها . وأوى فلافيير الى فراشة وهو يرمى نفسه بالغباء لأنه أجل سفره .

وفي اليوم التالى دس في يد مفتش القطار بضعة أوراق مالية واحتل مقصورة بالدرجة الأولى . وعجب لقدرة المال اللانهائية التي واتته بعد فوات الأوان والتي لم تبعد عنه الحمى والتعب والعبوس . لو أنه أصاب هذه الثروة قبل الحرب .. لو انه استطاع أن يقدم لمادلين .. ولكن هذه قصة قديمة انتهت ... وان ذلك لم يمنعه من الاحتفاظ بالقداحة ... ولعل ذلك بسبب ذلك الفيلم السخيف ... لاشيء يمنعه الآن من فتح النافذة والالقاء بها في عرض الطريق ... هناك أشياء خبيثة لها تأثير قوى كأنها تغرز سما خفيا يسرى في الجسد ببطء ... ومن هذه الأشياء الأحجار الكريمة مثلا ، فلم لا تكون القداحة هى الأخرى من بينها ؟ ... لن يمكنه التخلص منها على كل حال فهى الدليل الوحيد الملموس على انه أوشك أن ينال السعادة ذات يوم وسوف يوصي بأن تدفن معه بعد أن يموت ... عجبا ... يغيب في الثرى ومعه قداحة ! . هذه فكرة أخرى سخيفة .. ولكنه تمسك بها ... وراح يلهو بها ... لماذا يجذبه الغموض دائما ويلح عليه لماذا يلازمه صوت قطرة الماء وهى تتساقط في جوف السراديب المظلمة لعل ذلك بسبب طفولته التي قضاها في سمور حيث تلك المساكن الغريبة في جوف الصخور . اسند فلافيير رأسه على مسند المقعد وراح ينظر خلال الزجاج الى الصور الفياضة لعالم الأحياء ... كان مغتبطا مسرورا بنفسه وبحريته التي استعادها . سوف يشترى له بيتا في نيس ، في مكان منعزل وينام النهار ويمشي على الشاطىء في المساء ، في تلك الساعة التي تتحرك فيها الخفافيش كما لو كانت فراشات سوداء .. آه ... لن يفكر في شيء .. ولم يلبث أن استغرق في النوم .

هبط فلافيير في مرسيليا ، ولم يكن في نيته البقاء في المدينة طبعا . ومهما يكن فقد أصر على تحديد موقفه من هذه النقطة بالذات وسأل أحد موظفي المحطة فأجابه :

ـ أن تذكرتك تعطيك الحق في قضاء اسبوع لاجدوى اذن من الغش والراوغة . لابد له من أن يرحل وشيكا . وهذه الوقفة لا تربطه بأى شيء . سيقضي بالمدينة ما يلزم من وقت للتحقيق فحسب .

واستوقف سيارة أجرة وهتف بالسائق :

ـ الى فندق استوريا .

ـ هل تقصد فندق والدورف استوريا .

فأجاب فلافيير في شيء من التبرم .

ـ طبعا .

وفي قاعة الفندق الكبير جال ببصره حوله في حرص وحذر . كان يدرك تماما أنه يقوم بمهزلة .. وان لعبته في هذه اللحظة هي تخويف نفسه . كان يحب هذا القلق ... وانتظار المجهول .

سأله موظف الاستقبال :

ـ هل تريد غرفة ليوم أو لأكثر؟

ـ أوه ... لأكثر من يوم ... ربما لاسبوع .

ـ لا توجد غرف شاغرة غير غرفة كبيرة في الطابق الأول ملحق بها صالون صغير .

ـ لا بأس .

راق له ذلك كان بحاجة الى جو من الترف ليزداد ايمانه بالمهزلة التي يقوم بها . وقال يسأل عامل المصعد وهو يصعد به :

ـ متي جاء الجنرال دى جول الى مرسيليا .

قبل يوم الأحد الماضي بثمانية أيام .

حسب فلافيير الحسبة في ذهنه .. اثنا عشر يوما ... انها مدة طويلة .

ـ الم تلحظ رجلا متقدما في السن أنيق المظهر يضع لؤلؤة في ربطة عنقه .

وانتظر الرد في لهفة واحس بلذعة القلق البطيء تسرى في عروقه على الرغم من أنه كان يعلم يقينا أن كل هذا لن يوصله الى شيء . وأجابه العامل :

ـ كلا . ان قوما كثيرين يأتون الى الفندق كل يوم . كان هذا هو الواقع بالذات ولهذا لم يشعر فلافيير بأى أسف أو ندم انه أغلق بابه بالمفتاح ، وهى عادة قديمة متأصلة في نفسه اعتادها من زمن ، لم يستطع التخلص منها بمرور الزمن . حلق ذقنه وارتدى ثيابه في عناية كبيرة فقد كان ذلك جزءا من الدور الذى يؤديه . كانت يده قد اضطربت قليلا وعيناه تبرقان كعيني طفل . هبط السلم الكبير في غير اكتراث وسار الى الباب واضعا احدى يديه في جيب سترته تماما كما لو كان يتوقع لقاء أحد معارفه القدماء ، وراحت نظراته تتنقل ذات اليمين وذات اليسار في سرعة وهو يتوقف قليلا عند كل امرأة . وأخيرا جلس في مقعد شاغر أمام البار وطلب كأسا من الويسكى .

كان كثير من النزلاء يرقصون في حلقة الرقص الضيقة ، وغيرهم يثرثرون وهم جلوس في مقاعد مريحه بينما الآخر وقف البعض يتبادلون الحديث وهم يدخنون . وراحت الحياة في هذا المكان أشبه بقصة من القصص ، وراح فلافيير يشرب الويسكى في جرعات كبيرة وقد سرت الحمى الى كيانه وأحس بانه

مستعد .. مستعد لماذا ؟

انه يستعد لأن يتحمل رؤيتها من غير أن تأخذه رجفة أو رعشة .. يراها مرة واحدة يتأكد فيها من سخف ظنونه ثم يرحل ... انه يرحل ... انه لا يطلب أكثر من هذا ... ربما يجدها في قاعة الطعام . وتقدم الى القاعة الفسيحة فاستقبله الساقي وتقدمه الى احدى الموائد وهو يقول :

ـ هل أنت وحدك ياسيدى .

فأجابه فلافيير في شرود :

نعم

وبهرته الأضواء وتملكه الخوف . وتقدم في ارتباك نحو مقعده وهو لايجرؤ على فحص الرواد الذين يتناولون عشاءهم . واختار ألوانا من الطعام صدفة واتفاقا ثم ادار رأسه متظاهرا بالضجر .. ضباط كثيرون ونساء قلائل ... ولم يبد أحد اهتماما به وأدرك فجأة أنه يضيع وقته وانه جانبه الصواب في تفكيره وان الرجل والمرأة اللذين رآهما في السينما لم ينزلا بهذا الفندق أبدا وان الكاميرا فاجأتهما وهما واقفين على الرصيف ، ربما بعد هبوطهما من سيارتهما أو بعد خروجهما من فندق آخر قريب . اذن ... ما العمل ؟ .. هل يفتش المدينة بأكملها ... ولماذا ... الكى يعثر على امرأة تشبه شبها غامضا تلك التي ... الكى يعيد حبا خبا وتحول الى رماد ؟ .. ارغم فلافيير نفسه على تناول طعامه . نعم ؟ . كان وحيدا بشكل مروع .. أجبر نفسه على عبور البحر والانتقال الى باريس ليغرق نفسه في تلك الموجه العاتية من الصخب والفرح والحقد التي تجتاح باريس .. ان سفره هذا ما هو الا حجة وذريعة ، وهو في هذه الليلة ليس أكثر من حطام

مهجور التي به المد على الشاطىء ، وما عليه الآن الا أن يعود الى داكار وأن يرجع الى عمله الرتب ففي داكار مستشفيات ، هذا اذا كان يريد الاستشفاء حقا .

سأله الساقي :

ـ هل تريد قهوة أم شرابا ؟

ـ أعطى كأسا من البكور ؟

كان الوقت يتقدم بسرعة وكان يدخن وقد غامت عيناه وبلل العرق جذور شعره وراح الناس ينهضون من حوله بين قرقعة الأطباق والصواني .. لا داعي للبقاء اسبوعا بأكمله . يجب أن يرحل الى نيس في صباح غد وان يتمتع بقسط من الراحة قبل أن يودع فرنسا الوداع الأخير. ونهض وعظامه كلها توجعه فقد انهكته رحلته الطويلة . واقفرت قاعة الطعام وعكست المرايا صورته الشاحبة وهو يتحرك بين الموائد في تردد وصعد السلم في بطء. ليمنح نفسه فرصة أخيرة ولكنه لم يليق الا برجلين أمريكيين كانا يهبطان الدرج مسرعين . وفي غرفته القي بثيابه فوق مقعد ورقد على جانبه ووجد النوم سبيلا الى عينيه بعد مشقة كبيرة . وحتي في منامه أحس بأنه يبحث عن شيء كان يهرب منه دائما .

وفي الصباح ، فتح عينيه وفي فمه مذاق كمذاق الدم وأحس بالاعياء ولما ينهض بعد فغادر فراشه يائسا . هذه هي النتيجة التي وصل اليها . انها غلطته هو فلو أنه نسي هذه المرأة في سنة ١٩٤٠ ، ولو أنه لم يستجب لنفسه فيرتدى الحداد من أجلها اليوم ولو انه عني بنفسه وبصحته .. ولكنه مقضي عليه الآن لا محالة ..... آه ... لشد ما أصبح يبغضها فجأة وشد ما يمقت نفسه لأنه استجاب لمشاعره المعقدة وفلسفته الممجوجة وشكوكه

التي ... ودعك جفنيه بأصبعه في رقة ومر بيده على جبينه وهي حركة أخذت تلازمه بعد ذلك . لقد أصبح مريضا ومن الآن فصاعدا سوف يخاطبونه في رقة ... فرغ من ارتداء ثيابه على عجل ليتصفح دليل السفر فقد بدت مرسيليا مخيفة بمداخنها وضوضائها والحياة الصاخبة التي تملأ شوارعها ، ثم انه كان بحاجة الى تدليل الممرضات في ارديتهن البيضاء . كان يتوق الى الصمت ويحاول أن يؤلف قصة جديدة ليحطم بها الفكرة المخيفة التي تؤرق كيانه .

وعندما فرغ أخيرا من ارتداء ثيابه خرج وعبر الممر المغطى بالسجاد السميك . كانت رأسه لا تزال تؤلمه وهبط السلم درجة درجة ثم أخذ نفسا طويلا وتقدم نحو موظف الاستقبال . وفي قاعة صغيرة أمام الخزانة كان بعض الرواد يتناولون طعام الافطار . ووقعت عينا فلافيير على رجل ضخم الجسم .. هل تراه يحلم ؟ .. رجل ربطة عنقه .. رباه ! .. هل يمكن أن يكون هو ؟ .. رجل أنيق في الخمسين من عمره أمسك بسكين يقطع رغيفا من الخبز وهو يتحدث الى امرأة تولى ظهرها لفلافيير كان شعرها طويلا أسود اختفي نصفه تحت الفراء الذى القته على كتفها وكان لابد له أن يدخل القاعة لكي يتبين وجهها ... بعد لحظات .. نعم ، سوف يدخل لحظات أما الآن فهو مضطرب ، شديد الانفعال ، وهو لا يدرى لم هذا الاضطراب ولم هذا الانفعال . أخرج علبة سجائره في حركة آلية ثم اعادها الى جيبه على الفور . لا داعي للحماقات . مهما يكن من امر فان هذا الرجل وهذه المرأة لا يهمانه في شيء على الاطلاق واعتمد بمرفقه فوق المكتب وسأل الموظف في صوت خافت :

ـ هذا الرجل الجالس هنا ... الذى برأسه صلع ... هذا الرجل

يتحدث مع المرأة ذات الفرو ، .. انني نسيت اسمه .

ـ اسمه الماريان .

ـ الماريان ... وماذا يفعل ؟

غمز الموظف بعينيه وقال :

ـ كل شيء تقريبا .. كثيرون يستطيعون جني أموال طائلة هذه الأيام ، وهو منهم .

ـ وهذه المرأة ... هل هي زوجته ؟

ـ كلا طبعا ... انه لا يحتفظ بهن مددا طويلة ..

ـ هل يمكن أن أحصل على دليل ؟

ـ طبعا ياسيدى .

جلس فلافيير في القاعة وتظاهر بأنه يقلب صفحات الدليل ثم رفع عينيه . استطاع وهو في مقعده أن يرى المرأة بصورة أفضل . وما كاد يفعل حتي سطع اليقين في قلبه على الفور .. مادلين .. انها هى .. كيف أمكنه ان يتردد هكذا ... انها تغيرت . لقد تقدمت بها السن بعض الشيء وأصبحت مادلين أخرى .. ومع ذلك فهى مادلين التي عرفتها ... هى نفسها .

اضجع في مقعده الى الوراء واعتمد برأسه على ظهر المقعد . لم يعد يشعر بالقوة لكي يرفع يده الى جيبه ليأخذ منديله ليسمح به العرق المتصبب من جبينه ، ولو انه حاول الاتيان بحركة واحدة لأغمى عليه . لم يأت بحركة ولكن صورة مادلين كانت تشغل كل ذهنه .. كانت تحترق جفنيه المطبقتين وتخرق كيانه بسهم ملتهب . وقال لنفسه (لو أنها هى فسوف أموت) وأفلت الدليل من بين أصابعه وسقط على الأرض .

جمع شتات نفسه في بطء وحذر .. انه لن يفقد عقله لأنه

رأى شبيهة لمادلين ... وفتح عينيه ... كلا انها ليست شبيهة لها ... ومن منا يستطيع القول من اين يأتينا اليقين باننا نعرف انسانا ما

.. كان يعلم علم اليقين ان مادلين هناك مع الماريان البدين ، كما يعلم علم اليقين انه لا يحلم وانه هو هو فلافيير لم يتغير ولم يتبدل وأنه تألم ألما لا يطاق . كان يتألم لأنه كان يعلم أن مادلين ماتت منطقيا وعمليا .

ونهض الماريان وبسط يده للمرأة الشابه . والتقط فلافيير الدليل وبقي منحنيا مكانه في القاعة حتي مرا به ورأى ذيل معطف الفارو والحذاء الرقيق . وعندما اعتدل رآهما من خلال قضبان باب المصعد التي رسمت خلفها وجه مادلين كشبكة رقيقة من الظلال أشبه بالغلالة الشفافة . وأحس من جديد بلذعة حبه القديم الحادة . وتقدم بضع خطوات مترددا . والقي الدليل فوق المكتب وهو يتساءل هل رأته مادلين وهل عرفته ؟

وسأله موظف الفندق :

ـ هل ستحتفظ بالغرفة يا سيدى ؟

فأجاب :

ـ بكل تأكيد .

كان مصيره كله في هاتين الكلمتين ولم يكن يجهل ذلك .

وراح يضرب على غير هدى طوال النهار حول الميناء القديم ، تحت أشعة الشمس حيث زادت حركة التجارة بسبب الحرب وبسبب السوق السوداء . وراحت الطرقات القديمة المرصوفة تهتز عند مرور عربات النقل . ترك فلافيير لنفسه العنان وسط ضجة الشوارع واشراقة الجمهور في خنوع ووجل وهو يحس بأن كل

هؤلاء الناس لن يستطيعوا وقايته من آثار الهلع الذى يلازمه منذ أن رأى جسد مادلين بعينيه كما رآه جيفين وكما رأته المرأة العجوز التي اكتشفته وكما رآه رجال الشرطة الذين قاموا بالتحقيق ... لقد تعرف عشرة أشخاص على الأقل على الجثة .. ان تلك المرأة التي ترافق الماريان ليست مادلين اذن .. كلا .. لا يمكن أن تكون هي . عرج فلافيير على أقرب مقهى وطلب كأسا من الخمر .. ولم يشرب غيرها ومع ذلك فقد تملكه ضرر خفيف . وأشعل لفافة بالقداحة .. بتلك القداحة التي لا تكذب ، والتي في جيبه والتي طالما قلبها بين أصابعه في صلاة صامتة كما لو كانت مسبحة ... ان مادلين ماتت هناك عند البرج ... وماتت بولين قبلها ... ومع ذلك ... عاد الى الشراب لأن الفكرة التي تجسدت في ذهنه كانت من الغرابة بحيث اضطر الى تركيز كل قواه ليفحصها من جميع نواحيها . تذكر حديثهما في اللوفر : « سبق أن جئت هنا وانا ممسكة بذراع رجل يشبهك في كل شيء فيما عدا ان له عارضين » .

وضح الآن كل شيء .. في ذلك الوقت استعصي عليه الأمر ... كان يتدفق حياة وأعمت الأوهام بصيرته أكثر من اللازم ، ولم يكن قد عرف الشتاء أو المرض .. أما الآن فهو مستعد لتقبل الحقيقة الغريبة التي لا يمكن لأحد أن يعقلها ، فكما استعارت مادلين جسدا .. بل ولعله هو نفسه قد سبق له أن شاهد ، في وقت لا يذكره ذلك النهر البنفسجي وتلك التلال السمراء .. ولعل الموت طواه بين طياته هو الآخر أكثر من مرة ... ربما ، لو استطاع أن يتأكد فقط .. أن مادلين تأكدت وعرفت ... لماذا يخاف اذن ؟ ومم يخاف ؟.. هل يخاف من أن

يستيقظ ؟ وألا يؤمن بالمعجزة ؟ أو من أن يكون قد أخطأ خطأ كبيرا ؟... كلا ، كل الذى كان يخشاه هو أن يراها لأنه كان يعلم أنه يملك نفسه من التحدث اليها .. كان يريد أن يتحدث اليها ولكن هل يستطيع احتمال نظرة عينيها ؟.. وهل يستطيع أن يسمع نبرة صوتها من غير أن تأخذه الرعشة ؟

نهض فلافيير وهو يتمايل وعاد الى الفندق فاستبدل ثيابه للعشاء وارتدى السواد مقدرا أنه لا يزال في حداد من أجلها . وما أن تخطى عتبة البار حتي رآها في قاعة الطعام . كان يبدو أنها مستغرقة في أحلامها وقد وضعت ذقنها بين يديها المتشابكتين في حين كان الماريان يتحدث مع رئيس الخدم محاولا الحصول على طعام ، ممنوع من غير شك . وجلس فلافيير ورفع أصبعه فأسرع الجرسون اليه ، وكان قد عرفه ، ووضع أمامه كأسا مملوءة بالخمر ، وكان هناك بعض الراقصين يرقصون في الحفلة المجاورة . من خلال الباب المفتوح كان يرى قاعة الطعام بمن فيها والخدم يدفعون عرباتهم الصغيرة وهم بثيابهم البيضاء ، أما المرأة فكانت تبدو حزينة .. بهذا الحزن الذى طالما فتن فلافيير فيما سبق . بل لقد سبق له أن.. ومع ذلك فان جفين قد دللها.. وانه لمن الغريب أن يرثها رجال غرباء وأن تصبح فقيرة تضطر الى المعيشة مع هذا الألماريان الذى يبدل النساء بسهولة كما كان يفعل هنرى الثامن .. كانت تضع في أذنيها قرطين بعيدين عن الذوق السليم ، وكانت تصبغ أظافرها بطريقة ... أن مادلين الأخرى كانت أرق . وأحس فلافيير بأنه ينظر الى فيلم أسيئت دبلجته تقوم بتمثيله ممثلة من الدرجة الثالثة لا تجيد القيام بدورها . كانت لا تكاد تأكل ، وتبلل شفتيها في كأسها من وقت لآخر. وعندما نهض الماريان ،

بدا عليها الارتياح واقتربا من البار بحثا عن مائدة شاغرة . ودار فلافيير بمقعده ولكنه سمع الماريان يطلب كأسين وهو واقف خلفه . هل هذه هي اللحظة ؟.. لن تواتيه الجرأة أبدا .. فناول الساقي ورقة مالية ثم وقف على قدميه . وكان لا بد له من أن يستدير وان يتقدم ثلاث خطوات فيتبدد قلق أربع سنوات ولا يثقله شيء بعد ، ويتصالح الماضي والحاضر وتقف مادلين أمامه كما لو كانت قد تركته بالأمس فقط بعد نزهة قصيرة ، ولعلها تنسي كيف أفلتت منه .

وتقدم فجأة ثلاث خطوات وانحني أمام المرأة ودعاها الى الرقص معه . ومرت لحظات رأى فيها الماريان عن كثب بوجنتيه الشاحبتين وعينيه المبتلتين ووجه مادلين وهي تنظر اليه وفي عينيها ضجر ظاهر . قبلت دعوته في شيء من العبوس . هل من المحتمل انها لم تعرفه بعد ؟ راحا يدوران في حلقة الرقص وهما متلاصقان ، وأحس فلافيير بالجفاف في حلقه وبدا له أنه يرتكب حماقةً ما وأنه يتحدى أمرا ممنوعا .

وتمتم يقول :

ـ اسمي فلافيير . ألا يعيد هذا الاسم الى ذاكرتك شيئا ؟

تظاهرت في أدب بأنها تفكر ثم أجابت :

ـ كلا ... كلا ، حقا .

وعاد يقول :

ـ وأنت ... ما اسمك ؟

ـ رينيه سورانج .

وأوشك أن يحتج ولكنه أدرك فجأة أنها لا بد غيرت اسمها وان تكون قد غيرت حالتها الاجتماعية ، فازداد ارتباكه . ونظر

اليها من طرف عينيه ... انه يعرف جيدا هذا الجبين وزرقة العينين ورسم الأنف وبروز عظمتي الوجنتين. كل هذه التقاسيم ان هى الا تقاسيم وجه محبوبته التي ظلت عالقة بذهنه ملازمة لخياله أربع سنوات طوال ، ولو أنه أطبق عينيه لحسب أنه أنتقل الى قاعة اللوفر حيث ضم مادلين بين ذراعيه للمرة الأولى والوحيدة ، ولكن تسريحة مادلين الجديدة لم تكن تدل على الأناقة وكانت شفتاها ذابلتين على الرغم مما يعلوهما من المساحيق والأصباغ. كان هذا أفضل على كل حال ، فهى لم تعد تخيفه كما كانت تفعل من قبل .. وجرؤ على الدنو منها وعلى الاحساس بأنها تتدفق حياة ... نفس الحياة التي تجرى في عروقه هو ... فقد أشفق طويلا أن يضم بين ذراعيه شبحا ولكنه أحس بأنه يضم امرأة ، وكره نفسه لأنه أحس بأنه يشتهيها كما لو كان احساسه هذا قد دنس طاهرا نقيا.

وسألها :

ـ هل كنت تقيمين في باريس قبل الاحتلال ؟

ـ كلا . كنت في لندن .

ـ ألم تشتغلى بالرسم ؟

ـ كلا . أبدا ... لم أشعر أبدا بميل اليه .

ـ ألم تذهبي الى روما ؟

ـ كلا .

ـ لماذا تحاولين خداعي ؟

نظرت اليه بعينيها الصافيتين الخاليتين من كل تعبير وأجابته :

ـ ولكني لا أحاول خداعك .

ـ انك رأيتني صباح اليوم في قاعة الطعام وعرفتني على الفور ولكنك تتظاهرين الآن بعكس ذلك .

حاولت أن تتخلص منه ولكنه شدد عليها الضغط وهو يشكر الأوركستر الذى عزف في هذه اللحظة مقطوعة موسيقية جديدة دفعت الراقصين الى الاستمرار في الرقص وقال :

ـ اغفرى لى .

مهما يكن من أمر فان مادلين قضت سنوات طويلة وهى لا تعرف أنها بولين ، ولا عجب اذن اذا كانت رينيه لم تعرف بعد أنها هى مادلين . وقال يحدث نفسه « لا مراء في انني ثمل » .

وسألها وهو يشير الى الماريان :

ـ هل يغار ؟

فأجابت في حزن :

ـ أوه ... أبدا ...

ـ أنه يشتغل بالتجارة ... السوق السوداء ... أليس كذلك ؟

ـ أجل . وأنت ؟

ـ أنا محام . وهل أعماله رائجة ؟

ـ كل الرواج ... انه يكثر من الخروج .

ـ في مقدورى اذن أن أراك في النهار .

لم تنطق وترك يده تتدلى حتي خصرها شيئا فشيئا وتمتم :

ـ اذا احتجت الى فأنا في الغرفة رقم ١٧ ... لا تنسي .

ـ كلا . يجب أن ألحق به الآن .

كان الماريان جالسا يدخن سيجارا ويقرأ جريدة فقال فلافيير :

ـ أظن أن في مقدوره الاستغناء عنك الى الغد . وانحني يحييها ثم عبر القاعة ناسيا أنه لم يتناول عشاءه . وفي المصعد سأل العامل قائلا :

ـ في أى غرفة يقيم الماريان ؟

ـ في الغرفة رقم ١١ يا سيدى .

والسيدة التي معه ... ما أسمها ؟

ـ رينيه سورانج .

ـ أهو أسمها الحقيقي ؟

ـ يا الهى ! هذا هو الاسم المسجل في بطاقتها الشخصية ...

لم يكن فلافيير سخيا بطبعه ، ومع ذلك فقد قدم لعامل المصعد منحة سخية . والواقع انه ما كان ليحجم عن تقديم النفس والنفيس في سبيل أن يعلم الحقيقة . وفي حجرته جرع فلافيير عدة أقداح من الماء القراح قبل أن يأوى الى فراشه وهو لا يستطيع تبديد الضباب الذى يكتنفه . اضطر ان يعترف من جديد بأنه خائف . وعلى الرغم من انه كان ثملا فقد أدرك أنه كان يجب عليها أن تعرفه ، ولا ريب أنها مصابة بفقدان الذاكرة ، هذا اذا لم تكن تمكر به أو لعلها ليست هى مادلين حقا .

وعندما استيقظ في صباح اليوم التالى فكر على الفور في مشكلته وهو لا يزال يشعر بالغضب والحنق ، ورأى أن الوقت قد أزف لاستشارة الطبيب في نيس . أضطرم وجهه خجلا عندما ذكر محاولات الأمس ، ثم أنه لم يعد لديه ما يشغله في مرسيليا . يجب أن يهتم بصحته قبل كل شيء ولتذهب هذه المرأة التي تشبه مادلين الى الشيطان .

ومع ذلك فقد تصدر لماريان . وما كاد يتأكد من انصرافه حتي أسرع الى الغرفة رقم ١١ وطرق الباب طرقات خفيفة .

ـ من الطارق ؟

ـ فلافيير .

وفتحت له الباب . كانت محمرة العينين متورمة الخدين ، ولم تكن قد استبدلت ثيابها بعد .

ـ رينيه .. ما معني هذا ؟

ولكنها أخذت تبكي فأغلق الباب خلفه وأوصده بالرتاج وقال :

ـ ما الخبر يا صغيرتي ؟... تكلمي .

فتمتمت .

ـ انه يريد أن يهجرني .

نظر اليها فلافيير في صرامة . كانت هى مادلين .. مادلين التي يعرفها وقد خانته مع الماريان ومع كثيرين غيره ... وضم قبضتيه في جيبه وقال مداعبا وعلى شفتيه ابتسامة متوترة :

ـ وفيم هذا البكاء ؟... دعيه يرحل ... ألست أنا هنا ؟.. انني أستطيع أن أسد الفراغ الذى يتركه .

فانهمرت من عينيها الدموع وقالت :

ـ كلا ... كلا ... أنت لا !

وقال وهو ينحني فوق وجهها :

ـ ولماذا ؟

سيدى المدير

أتشرف بافادتكم بأنه قد تم تحويل المبلغ المطلوب لحسابكم بمارسيليا ، وعلى الرغم من أن هذا التحويل لا يؤثر كثيرا في مركز الشركة فانني أرى من واجبي أن ألفت نظركم الى ما في هذا العمل من خرق للقواعد والنظم ، الأمر الذى لا يمكن أن يتكرر من غير أن يضر بالشركة . أرجو أن تكون صحتكم قد تحسنت ولم تعد تسبب لكم أية متاعب ، ويسرني أن أسمع منكم قريبا

بموعد عودتكم . كل شيء هنا على ما يرام وسير العمل يدعو الى الأرتياح .

وتفضلو يا سيدى المدير بقبول خاص تحياتي

ج . طرابول

مزق فلافيير الرسالة محنقا .. لقد أصبح الآن يثور لأتفه الأسباب . وسألته رينيه :

ـ أهو نبأ مزعج ؟

ـ كلا ... هو هذا الأحمق طرابول .

ـ ومن هو ؟

ـ وكيل أعمالى .. أن من يستمع اليه يعتقد أن نهاية العالم ستكون غدا في حين أن الدكتور بالار يوصيني بالراحة .

أين هى الراحة ؟

واستطرد يقول فجأة :

ـ تعالى ... هلمى بنا نستنشق الهواء النقي .

شعر بالأسف على تركه المسكن الفسيح الذى كان يقيم فيه بفندق الوالدورف ، فقد كانت غرف فندق فرنسا الذى انتقل اليه صغيرة ضيقة تبعث الانقباض في النفس فوق انها مرتفعة الايجار . ولكن كان يعزيه شيء واحد هو بعده عن الماريان . أخرج علبة سجائره وأشعل عودا من الثقاب ... أنه لم يجرؤ على استخدام القداحة منذ أن .. كانت رينيه تصلح من شأنها أمام المرآة وتمشط شعرها . فقال مزمجرا :

ـ لا أحب هذه التسريحة ... ألا يمكن أن تغيريها .

ـ كيف ؟

ـ لا أدرى ... يمكنك أن تمشطى شعرك وأن تجمعيه من

الوراء على شكل حلقة مثلا .

نطق بهذه الكلمات من غير تفكير ... وأخذه الحنق على الفور ، فما الجدوى من استئناف شجار كان قائما منذ أيام بعنفه المضني وهدوئه الخادع . كانا يدوران ، أحدهما حول الآخر ، كما لو كانا حيوانين وضعا في قفص واحد وأخذا يكشران عن أنيابهما وهما يزمجران ، أو وهما يرقدان وكل منهما يحلم بمكان مستقل فسيح .

لم ينتظر فلافيير تعليقا من رينيه واسقط قائلا :

ـ سأنتظرك في البار .

وهبط الى البار مباشرة ونظر بحدة الى الساقي الذى ابتسم له . كان هذا الأخير شأنه كشأن كل السقاه على إختلاف أماكنهم ، تميز بلهجة معسولة وحركات رقيقة وهو يعرض على عملائه ما لديه من شتي أنواع الخمور . شرب فلافيير كأس الخمر الذى قدم اليه ، وكان في استطاعته أن يشرب بالطبع بعد أن أصبح واثقا ومهما أنكرت ، فان ذلك لن يزعزع ثقته . على أنه لم يكن ينظر اليها نظرة المرء الى عشيقته وكان في مقدوره الاستغناء عن هذا الحب بكل سهولة . وقد صدم شعوره لاستجابة مادلين لهذا الاستمتاع فانه لم يكن يحب فيها منذ البداية الا ... لم يدر كيف يفسر احساسه هذا ... لم يحب فيها الا شيئا واحدا وهو انها لم تكن حقيقية . أما الآن فقد بدأ الأمر على العكس من ذلك اذ كانت تحاول أن تشبه النساء الأخريات . كانت تريد بكل ما أوتيت من قوة أن تكون رينيه ، وكانت متشبثة بهذه الشخصية بقوة وبصراحة واصرار ... ومع ذلك . فلو انها قبلت الافضاء بسرها لتتخلص من وحدته تماما . أن الميت لم يكن غيره هو أما

هى فكانت تتدفق حياة .

ونظر اليها وهى تهبط الدرج وتتقدم وعلى شفتيها شبح ابتسامة ماكرة .. كانت ترتدى ثوبا بغيض اللون غير متقن التفصيل وحذاء غير مناسب له ، وكان الوجه كله في حاجة لاعادة ابرازه . كانت عيناها فقط هما اللتان احتفظتا بصفائهما ونقائهما ، وهما اللتان تبرزان شخصية مادلين وتكشفان أمرها . دفع فلافيير ثمن مشروبه وأسرع لأستقبالها ... ود لو يفتح لها ذراعيه ليضمها اليه ...

وقالت له :

ـ انني لم أتأخر عليك ، أليس كذلك ؟

أوشك أن يهز كتفيه ، فهى لم تعد تعرف كيف تنتقي الكلمات التي ينتظرها وحتي طريقتها عندما تضع يدها تحت ذراعه لم ترق له ، فقد كانت مفرطة في الخضوع . مفرطة في الخوف ... كانت تخاف منه بعض الشيء ، وكان هذا وحده يثيره أكثر من أى شيء آخر . سارا جنبا الى جنب في صمت وهو يفكر قائلا : (لو أنه قيل لى منذ شهر أن هذا سوف يقع لى لوقعت ميتا من فرط السعادة) ومع ذلك فهو لم يحس بالشقاء والتعاسة كما كان يحس بهما في ذلك الوقت .

كانت تبطىء في سيرها أمام واجهات المحال وتثاقل على ذراع فلافيير. وكاد صدره أن يضيق لهذا التبذل .

وسألها :

ـ لا ريب في انك أفتقدت أشياء كثيرة بسبب هذه الحرب ؟

فأجابت :

ـ أجل . كل شيء .

أثرت فيه لهجتها التي تدل على تقبل الفقر والرضا به فقال :
ـ أهو الماريان الذى يعولك ؟

كان يعلم سلفا أن هذه الكلمة الأخيرة ستجرح شعورها ولكنه مع ذلك لم يملك الا النطق بها . وتوترت أصابعها على ذراعه بعض الشيء وقالت :

ـ سرني جدا أنني التقيت به .

وأحنقه ردها . وعلى الرغم من أنه كان البادىء فأنه لم يشأ أن يسلم وبدأ يقول في حدة :

ـ أصغى الى ...

ولكنه لم يمض في حديثه الى أكثر من هذا ، فلم تكن هناك فائدة من الشجار ، وجرها الى منتصف الرصيف فقالت :

ـ لا تسرع هكذا .. ألسنا نتنزه ؟

لم يجب . وجعل يفحص واجهات المحال . وأهتدى أخيرا الى ما يبحث عنه فقال :

ـ تعالى .. دعى الأسئلة الى ما بعد .

وانحني أمامها أحد الموظفين شابكا يديه ، فسأله فلافيير في صوت حاد :

ـ قسم الثياب الجاهزة ؟

ـ الدور الأول . المصعد في آخر المحل .

كان قد عقد نيته هذه المرة ، ولا بد لطرابول أن يدفع ، شاء أو لم يشأ ، وسرت في كيانه نشوة لذيذة .. فهى قد تعترف .. بل لا بد لها أن تعترف .. وأغلق العامل الباب وصعد المصعد بهم .

وهمست تقول :

ـ يا حبيبي .

ـ أصمتي ..

وسار الى البائعة وخاطبها قائلا :

ـ أرينا بعض الثياب .. أريد أفضلها وأكثرها أناقة ..

ـ حسنا يا سيدى ..

وجلس فلافيير. كان يلهث قليلا كما لو كان قد فرغ لتوه من تمرين شاق . وجاءت البائعة بنماذج كثيرة مختلفة الأنواع وضعتها فوق طاولة كبيرة ووقفت تراقب أنفعالات رينيه . ولكنه أسرع بالتدخل وقال وهو يشير بأصبعه :

ـ هذا الثوب !

ودهشت البائعة وهتفت :

ـ الأسود ؟

ـ نعم ، الأسود .

وتحول الى رينيه وقال :

ـ هل لك أن تجربيه . مرضاة لى ..

ترددت رينيه واضطرم وجهها وهى تشعر بالحرج أمام البائعة التي تراقبها ثم دخلت الغرفة معها . أما فلافيير فقد نهض وراح يسير جيئة وذهابا . لقد بدأ يعيش على الترقب والانتظار كما كان العهد به سابقا .. نفس القلق الذى يتزايد من لحظة لأخرى ونفس الضيق .. وعادت الحياة تثيره من جديد وأخذ يضغط بأصابعه على القداحة في جيبه وهو يستبطىء مرور الوقت . ورأى أن يديه ترتعشان ويتصبب منهما العرق وهو يقلب أكداس الثياب المعلقة أمامه . بحثا عن تايير رمادى ، ولكن لم ترق له كل التاييرات الرمادية الموجودة لأنه لم يجد بينها اللون الذى يريده .. لم يكن بينهما واحد بنفس اللون الذى لا يزال يذكره .. وانفتح باب

الغرفة الصغيرة في هذه اللحظة فتحول مسرعا وأحس بنفس الصدمة التي أحس بها في فندق الوالدورف .. نفس الصدمة في أحساسه الدقيق . كانت هى مادلين بدمها ولحمها . مادلين التي وقفت مكانها جامدة كما لو كانت قد عرفته . مادلين التي أخذت تتقدم الآن شاحبة اللون وفي عينيها نفس السؤال الحزين الذى طالما رآه فيما سبق . وبسط يده المعروقة ولكنه لم يلبث أن وضعها الى جانبه على الفور .. كيف لم يلحظ القرطين وبريقهما المبتذل الذى أفسد جمال الصورة وروعتها .

وقال في صوت خافت :

ـ أخلعى هذين القرطين !

واذ رآها مترددة ، غير فاهمة انتزع القرطين بنفسه في شيء من الحدة ثم تراجع الى الخلف خطوة وأحس في يأس المصور الذى يعجز عن أن يعبر عن الصورة التي يريدها تعبيرا صادقا وقال يخاطب البائعة :

ـ حسنا سوف تحتفظ السيدة بالثوب الذى تلبسه . وأظن أن هذا التايير من نفس المقاس أليس كذلك ؟. سوف نأخذه أيضا . هل لك الآن أن ترشدينا الى قسم الأحذية ؟.

وانقادت رينيه ، ولعلها أدركت لماذا كان فلافيير يدرس كل زوج من الأحذية دراسة دقيقة ولماذا يحاول الجدال مع نفسه ويقلب كل نموذج بين يديه في صمت ناقدا شكل الكعب أو رسم الرباط ، واختار أخيرا زوجا رفيعا لامعا وقال :

ـ دعينا نرى هذا .. تمشي قليلا ..

وأخذت تتمشي جيئة وذهابا بالكعب العالى فبدت أكثر رشاقة في ثوبها الأسود وأخذ ردفاها يتحركان في رفق وصاح :

- كفي .

نظرت البائعة اليه مشدوهة ، واذ رأى ذلك أسرع يقول :

- حسنا . سنأخذ هذا الزوج .. ضعى الزوج الآخر في صندوق .

وأخذ صاحبته من يدها وسار بها الى المرآة وتمتم :

- انظرى الى صورتك في المرآة .. انظرى الى صورتك يا مادلين ..

فتوسلت اليه قائلة :

- أرجوك ..

- هنا لك مجهود صغير آخر .. هذه المرأة ، ذات الثوب الأسود التي ترينها أمامك .. ألا ترين أنها لم تعد رينيه سورانج .. ألا تذكرين .؟

كان يبدو أنها تتألم .. وتوترت ملامحها ذعرا وهلعا وهي تنظر الى صورتها في المرآة . وجرها الى المصعد . سوف يهتم بالشعر فيما بعد .. أما الآن فعليه أن يهتم بالعطر .. شبح الماضي .. عليه الآن أن يسير حتي النهاية ولا يهمه ما سوف يقع .. ولكن العطر لم يعد له وجود وعبثا أصر فلافيير فقد أجابته البائعة :

- كلا .. لا أفهم قصدك ..

- لا أدرى كيف أفسر لك ذلك .. هو عطر يبدو لمن يشمه أنه يشم باطن الأرض ورائحة الزهور الذابلة ..

- من الجائز أنه عطر شانل رقم ٣ .

- هذا جائز .

- لقد توقف المصنع عن انتاج هذا النوع يا سيدى . ربما تجده في محل صغير أما هنا فلا .

وجذبته رينيه من كمه .. ولكنه بقي مكانه ينظر الى الزجاجات المرصوصة أمامه في تفكير.. لن تكتمل صور الماضي بدون هذا العطر. وانتهى به الأمر الى الاذعان والرضوخ للواقع ولكنه مع ذلك اشترى لمادلين قبعة قبل أن ينصرف ، قبعة صغيرة . وبينما كان يدفع الحساب أخذ ينظر من طرف عينه الى المخلوقة الشاذة والمألوفة في نفس الوقت التي تقف بجواره . وتسلل الى قلبه شيء من التسامح وأخذ بيد مادلين التي قالت له :

ـ لماذا كل هذه الحماقات ؟

ـ لماذا ..؟ لأنني أريد أن تعودى الى نفسك .. أريد أن أعرف الحقيقة .

كانت شديدة التوتر كغريم يهم بالفرار أمام خصمه ولكنه ضمها اليه بقوة .. كلا .. انها لن تفلت منه وسوف ينتهى بها الأمر الى أن تعترف .

واستطرد قائلا .. أريدك أن تكوني أجمل النساء . أن الأوان قد محى من الوجود ، بل أنه لم يكن موجودا على الاطلاق .

سارا بضع دقائق ، وهما متلاصقان . ولم يشعر الا والكلمات تندفع من بين شفتيه على الرغم منه :

ـ لا يمكن أن تكوني رينيه ، أرأيت ؟. لست غاضبا .. أنني أتكلم في هدوء .

تنهدت . وما كادت تفعل حتي أوشك أن يحتد وقال :

ـ نعم .. أنني أعلم . أنت رينيه ، وقد قضيت حياتك في لندن مع عمك شارل . انك ولدت في دامبرعون وهى قرية صغيرة في اقليم الفوج على مقربة من نهر. انك ذكرت لى كل هذا ولكني أقول لك ، أن هذا محال أنك مخطئة .

فتوسلت اليه تقول :

ـ الا تدع هذا الحديث جانبا ؟

ـ وكيف أدعه ؟... أنني واثق أن هناك في مكان ما من ذكرياتك شيء غير طبيعي . لا ريب أنك أصبت في وقت ما بمرض .. مرض شديد .

ـ ولكني أؤكد لك ...

ـ وهنالك أمراض تتسبب في أعراض غريبة .

ـ لو أن الأمر كما تقول لتذكرت على الأقل ... ولكني لا أذكر شيئا فيما عدا انني أصبت بالحصبة وأنا في العاشرة .

ـ لا . ليس هذا كل شيء .

ـ انك تضايقني .

راض نفسه على الصبر ، تماما كما لو كانت مادلين مصابة بعاهة أو كما لو كانت مخلوقة هشة يجب معاملتها برفق غير أن عنادها أثاره فاستطرد يقول :

ـ انك لم تذكرى لى شيئا عن طفولتك تقريبا . وأريد أن أعرف كل شيء عنها .

ومرا في هذه اللحظة أمام متحف جروبيه لابادى فأردف يقول :

ـ لندخل هنا ... سنستطيع أن نتحدث من دون أن يزعجنا أحد .

ولكنه أدرك بمجرد أن دخلا المتحف أن عذابه سيكون أشد قسوة عن ذى قبل ... كان وقع خطواتهما والصمت المطبق المخيم حولها والصور واللوحات المعلقة ، كل ذلك أعاد الى ذاكرته متحف اللوفر بصورة مزعجة . وعندما أخفتت الفتاة من صوتها

لكى لا تزعج هدوء المكان المقفر استعادت فجأة لهجة مادلين وصوتها الخافت الملثم الذى اكسب اعترافاتها وزنا كبيرا . وكان فلافيير يصغى الى الموسيقي الغريبة الصادرة من كلماتها أكثر مما كان يصغى الى كلماتها ذاتها . كانت تحكى له قصة طفولتها . والغريب أن هذه الطفولة كانت تشبه الى حد كبير طفولة مادلين ، فقد كانت هي الأخرى طفلة وحيدة يتيمة أتمت دراستها في معهد اعدادى ثم حصلت بعد ذلك على الشهادة الثانوية ... وانتقلت على إثر ذلك الى انجلترا حيث اشتغلت بالترجمة ... كانت متشبثة بذراع فلافيير تماما كما كانت تفعل مادلين من قبل وأحس بنفس الاحساس الذى أحس به من قبل ، وود لو أن يضمها بين ذراعيه . توقف أمام لوحة للميناء القديم وسألها في صوت متهدج :

ـ هل تحبين هذا النوع من الرسم ؟

ـ كلا لا أدرى ... أنني لا أعرف شيئا في الرسم كما تعلم .

تنهد وقادها بعيدا أمام لوحات أخرى لسفن وزوارق وخيوط العنكبوت فوق حبالها وقال :

ـ استمرى في حديثك .

ـ ماذا تريد أن أقول لك ؟

ـ كل شيء ... ماذا كنت تفعلين وفيم كنت تفكرين ؟

ـ أوه ... انني كنت طفلة كغيرى من الأطفال .. بل لعلى كنت أقلهن مرحا ... كنت أحب قضاء وقتي في قراءة الأساطير .

ـ أنت أيضا ؟

ـ كغيرى من الأطفال . كنت أتمشي في الجبال . حول البيت ، واحكى لنفسي حكايات . كنت أرى الحياة كقصة من

قصص الحوريات ولكني مخطئة .

ودلفا الى قاعة مخصصة للآثار الرومانية ... تماثيل كاملة وأخرى نصفية بعيون فاغرة وشعر قصير في أماكنها صامتة فوق قواعدها حالمة بجوار الجدران . وازداد شعور فلافيير بالضيق فقد بدت له كل الوجوه التي يراها حوله كما لو كانت تزيد من غموض جيفين . وتذكرت على الرغم من بعض كلمات صديقه (أريد أن تراقب زوجتي ، فهى تثير قلقي) وقد مات جيفين كما ماتت مادلين ولكن بقي صوتهما ... ثم ها هى ذى مادلين تسير الى جاره من جديد تماما كما كانت في الماضي .

وسألها :

ـ ألم تقيمى بباريس أبدا ؟

ـ كلا ... مررت بها فقط عند انتقالى الى انجلترا ، وهذا كل شيء .

ـ وعملك ... متي مات ؟

ـ في مايو من السنة الماضية ... وفقدت عملى ولهذا عدت .

وقال فلافيير يحدث نفسه : « لعمرى ، انني استجوبها كما لو كانت أتت شيئا اداًّ » .

ولم يعد يدرى ما الذى يهدف اليه . كان يشعر بالمرارة والخيبة ويصغى الى حديث مادلين في شرود . ترى هل كانت تكذب ؟ ولكن لماذا تكذب ؟... واذا كانت تكذب فكيف تقدر على اختلاق كل هذه التفاصيل التي أصبحت تدينها ؟ أن أكثر الناس تشككا ليقسم الآن انها هي رينيه سورانج .

وقالت :

ـ انك لا تصغي الى ... ما بالك ؟

ـ لا شيء ... انني متعب قليلا ... الجو هنا خانق .

واجتازا مسرعين قاعات كثيرة وشعر فلافيير بالسرور عندما عاد لرؤية الشمس وسماع ضجيج الشارع من جديد . وود لو كان وحده وتناول بعض الشراب .

وقال :

ـ سأفارقك هنا فانني لم أتسلم حصتي الاضافية من التموين بعد ولا بد لى من الذهاب الى مكتب التموين يمكنك أن تتمشي اذا شئت ... خذى ... اشترى ما يحلو لك .

وأخرج بعض الأوراق المالية وأعطاها منها الكثير. وما كاد يفعل حتي ندم على فعلته هذه فقد اعتبر تصرفه هذا بمثابة صدقة أو أحسان . لماذا جعل منها صديقته ؟ أنه أفسد كل شيء وخلق منها وحشا فهى لم تعد مادلين وكذلك لم تعد رينيه .

وهتفت :

ـ لا تتأخر كثيرا .

وما كادت تبتعد عنه عشرين مترا ثم ثلاثين حتي أوشك أن يركض للحاق بها ، اذ زاد يقينه بأنه يرى مادلين بهيئتها وحركاتها وخطواتها البطيئة ... وبلغت آخر الشارع وكاد قلبه يتوقف عن الحركة ... سوف يفقدها وهو الذى اطلقها وتركها تفلت منه ، ولكن ما أشد حماقته !... انها لن تفر وليس هناك أى خطر من ذلك .. فهى ليست من الغباء الى هذا الحد ... سوف تنتظره في الفندق في هدوء .

ودخل أول مقهى صادفه : وطلب كأسا من الويسكى . لم تفلح الخمر في تهدئته ولم يكف عن التفكير في المشكلة التي تلح عليه . ان رينيه هي مادلين ومع ذلك فان مادلين لم تكن هي

رينيه تماما ، ولن يستطيع أى طبيب ولا حتي بالار نفسه أن يجلو هذه المعضلة لقد أخطأ منذ البداية ، ولا بد أن ذاكرته قد خدعته ، فهو لم يعرف مادلين الحقيقية ... مادلين الأيام السالفة معرفة كافية ... لقد وقعت حوادث كثيرة ... كثيرة جدا ... ولكن كيف يقول هذا ؟... ألم تشغل مادلين ذهنه وتقض مضجعه طوال السنين الماضية ؟. ألم تظل صورتها ماثلة أمام عينيه في كل لحظة ؟. انه ليعرف مادلين وهو مطبق العينين ، يحس بها اذا ما مرت أمامه في دور بولين بقدر ما تبدو الآن ضائعة في دور رينيه كما لو كان عقله يتردد في اختيار الصور التي يريدها . وربما انتهى الأمر الى أن تصبح رينيه في آخر الأمر. ولكنه لن يقبل هذا أبدا ، لأن رينيه كانت امرأة تتقدم في العمر ولأنه ليس لها اناقة مادلين ورشاقتها ، وأخيرا لأنها ترفض كل الحجج والبراهين التي يقدمها اليها دون أن يكل أو أن يتعب .

وطلب كأسا أخرى .. أنه في حاجة الى براهين ... حجج وهل يمكن أن تكون هذه التوكيدات التي لا يمكن التحقيق منها حججا وبراهين ؟ انه كان واثقا في قرارة نفسه من أنها مادلين ولا شيء أكثر من هذا . وهو لكي يفحمها ويرغمها على الأعتراف بأنها تستتر تحت شخصية رينيه كان بحاجة الى حقيقة مادية لا تقبل الجدل .. فماذا يفعل ؟

وبدأت الخمر تسرى في شرايينه ، ولفرط اهتمامه حاول أن يغير هذه النار الصامتة الى ضوء . كان هناك دليل في متناول يده . كان في مقدوره التأكد منه فهو قد رأى بطاقة رينيه الشخصية في حقيبتها مرارا ... سورانج ، رينيه ، كاترين ، من مواليد ٢٤ أكتوبر ١٩١٦ بقرية دامبريمون .. باقليم الفوج .. ان في مقدوره

أن يتحقق من ذلك طبعا .

ودفع حسابه وفكر قليلا . كانت نظريته معقولة جدا فخرج وركب تراما في طريقه الى دار البريد . وكان في كيانه فراغ كبير بسبب اكتشافه ، ولم يحاول أن يفكر الآن وراح ينظر الى وجوه الركاب العاديين وود لو أن يصير واحدا منهم حتي لا يشعر بمثل الخوف الذى يشعر به .

وفي دار البريد وقف في الصف صابرا من غير أن يتململ وهو يحدث نفسه فيقول أنه سوف يعرف الحقيقة حالا اذا كانت الأسلاك قد اصلحت .

ـ هل أستطيع الاتصال بدامبريمون ؟

ـ في أى أقليم .

ـ الفوج .

فأجابه الموظف دامبريمون ... لا بد أنها في جيرارمير واذا صح هذا ...

ونادى زميلا له وخاطبه قائلا :

ـ أنك تعرف خيرا مني ... دامبريمون بأقليم الفوج ... أن هذا السيد يريد الاتصال بها ؟

رفع الآخر رأسه وقال :

ـ دامبريمون ... لقد مسحها الألمان ... ولماذا تريد الاتصال بها ؟

فأجابه فلافيير :

ـ لاستخراج شهادة ميلاد .

ـ لم تعد هناك دار للبلد ولا مبان ... لقد صارت مجرد أرض فضاء .

- ما العمل اذن !

هز الرجل كتفيه وعاد الى عمله . وغادر فلافيير الشباك ... لا مستندات ولا سجلات مدنية ... لم يعد هناك شيء فيما عدا بطاقة شخصية صادرة في أكتوبر أو نوفمبر ١٩٤٤ . وماذا يمكن أن تعنيه البطاقة الشخصية ؟ أن الدليل ، الدليل الوحيد على أن رينيه كانت حية ترزق عندما وقع لمادلين هذا الحادث لم يعد له وجود ولم يعد في مقدور أحد أن يثبت أنهما كانتا تعيشان في وقت واحد وانهما شخصان مختلفان ، واذا صح انهما ليسا حقا شخصين مختلفين ...

وراح فلافيير يضرب على غير هدى . ما كان يجب أن يشرب وما كان ينبغي أن يذهب الى دار البريد . كان أكثر هدوءا قبل ذلك . لماذا لم يقنع بحب هذه الفتاة فحسب ولماذا يسمم حياتهما المشتركة بالقاء الأسئلة التي لا تفرغ ؟ أن عدم وجود هذا الدليل لا يعني شيئا ... ولكن ... أن في مقدوره أن يذهب الى دامبريون وان ينقب ويبحث بين الأنقاض ... أنه أصبح فظيعا . ولكن ماذا يكون الحال اذا هي سئمت شكوكه وريبته وأسئلته ؟ ألا يمكن أن تهجره ؟.. نعم أن في مقدورها أن تفعل ، واذا هي هربت ذات يوم ...

وما كاد هذا الخاطر يخطر له حتي تخاذلت ساقاه ووقف مكانه في الشارع ويداه الى جانبيه كالمريض الذى يخشي أن يتوقف قلبه عن الحركة . ثم سار في بطء مقوس الظهر . مسكينة مادلين ! ... شد ما يحلو له ايلامها « ولكن لماذا تسكت ولماذا لا تتكلم ؟... ماذا لو قالت نعم ، انني عائدة من هناك وان هاتين العينين الصافيتين الحزينتين رأتا ما لا يمكن نسيانه أبدا ... لو أنها قالت

له هذا ألا يقع صريعا ؟.

وحدث نفسه قائلا : أصابتني لوثة هذه المرة بلا شك .

بعد قليل عاد يحدث نفسه ـ لعل الافراط في المنطق هو الجنون بعينه .

واذ بلغ الفندق تردد . ورأى محلا لبيع الزهور فاشترى باقة من القرنفل . كلا ، لن تشعر رينيه انها سجينة . وأخذ المصعد وامتلأ الفراغ حوله برائحة القرنفل . وعادت الهواجس تلح عليه من جديد . وعندما دفع الباب كان يترنح اشمئزازا وبأسا . وكانت رينيه راقدة فوق الفراش فألقي بالباقة على المنضدة قائلا :

ـ حسنا .

ما هذا ؟.. كانت تبكي ... آه .. كلا .. انه لن يطيق هذا . وتقدم عاقدا ذراعيه وقال :

ـ ماذا بك .. تكلمي ... ما الخبر؟

وأخذ رأسها وحولها نحو النور وقال يا صغيرتي المسكينة .

لم يكن قد رأى مادلين تبكي ولكنه نسي أنه رأى جنتيها المبتلتين ونسي أنه رأى وجهها بعد أن زالت عنه الأصباغ على ضفة نهر السين .. وأطبق عينيه ونهض قائلا :

ـ لا تبكي ... أرجوك ... كفي عن البكاء فورا ... لا يمكن أن تعرفي ...

وتملكه الحنق فجأة فضرب الأرض بقدمه وصاح .

ـ كفي ... كفي ...

وجلست فوق الفراش وجذبته نحوها ولم يتحركا . وبدا كأنهما ينتظران شيئا ما .. وأخيرا ألقي فلافيير ذراعه حول كتفي رينيه وقال :

ـ اصفحى عني ... لم أعد أملك أعصابي ... ومع ذلك فاني أحبك كل الحب .

وأخذت خيوط النهار تتراجع أمام خيوط الليل في بطء ، وتناهى الى سمعيهما صوت ترام يصر وارتفع بريق أخضر انعكس ضوؤه في المرآة وكانت الغرفة قد امتلأت برائحة القرنفل . والتصق جسد فلافيير بجسد رينيه وأحس بالهدوء يتسرب الى كيانه فلماذا يبحث ؟ ولماذا يبحث دائما ..؟ كان يشعر بالأمن والهدوء بالقرب من هذه المرأة . كان يؤثر طبعا أن تكون هى مادلين القديمة ومع ذلك فانه ، في الغسق ، وبشيء من الجهد يمكنه أن يتصور أنها موجودة بجواره بثوبها الأسود ، وانها أفلتت لفترة قصيرة من الظلال التي غلفتها .

وقالت في صوت خافت :

ـ آن أن نهبط .

ـ كلا .. لست جائعا .. لنبق هنا .

كانت فترة رائعة من الراحة والاستجمام . سوف تكون له طالما أمتد الليل وطالما ظل وجهها مجرد نقطة شاحبة في تجويف كتفه . مادلين .. استولى عليه حذر لم يعرف مثله من قبل .. كلا ، أنهما ليستا امرأتين لا فائدة من الشرح .. أنه لم يعد خائفا .

وتمتم بقول :

ـ أجل .. لم أعد أشعر بخوف .

داعبت جبينه بأصابعها وأحس بأنفاسها على وجنته وملأت رائحة القرنفل خياشيمه . وفي هدوء أبعد عنه جسدها بحرارته التي كانت تنتقل اليه وأمسك اليد التي لمست وجهه وظل ممسكا بها في حرص كما لو كان يخشى أن يفقدها ، أصبح الآن يعرف كل

صغيرة وكل كبيرة في هذه اليد الرقيقة . رباه ..! كيف أمكنه أن ينسي ..؟ ما أشد حاجته الى النوم ..؟ وهبط بدوره الى عالم الظلمات حيث تعيش الذكريات الحبيبة . تراءت له عجلة قيادة تمسك بها نفس اليد . نفس اليد التي فكت رباط اللفافة الزرقاء والتي أخرجت منها البطاقة التي كتب عليها (الى أوريديس العائدة الى الحياة) وفتح عينيه .. كان الى جواره جسدها المتراخى . وسمعها تتنفس فنهض مرتكزا على مرفقيه وانحني فوق الوجه المغمض العينين ووضع شفتيه على العينين المفتوحتين وتمتم :

ـ ليتك تقولين لى من أنت .؟

انسابت دموعها حارة غزيرة على وجنتيها فبحث عن منديله تحت الوسادة ولما لم يجده نهض قائلا :

ـ سأعود حالا ..

وتسلل الى غرفة الحمام في صمت . وكانت حقيبة رينيه هنالك فوق طاولة الزينة ففتحها وتحسس داخلها بيده ولكنه لم يجد بها منديلا . ولمست أصابعه شيئا أثار اهتمامه .. حبوب عديدة .. عقد ..؟ نعم كان عقدا . ودنا من النافذة ورفع العقد نحو الضوء الباهت الذى ينساب من خلال الزجاج وما كاد يفعل حتي ارتعشت يداه .. لم يكن هناك أى خطأ ممكن .. كان العقد هو عقد بولين لاجرلاك نفسه .

ـ ٤ ـ

قالت رينيه :

ـ انك تفرط في الشراب .

ونظرت على الفور الى المائدة المجاورة وهي تخشى أن تكون قد تكلمت بصوت عال . كانت تدرك تماما أن فلافيير بدأ يلفت الأنظار اليه منذ بضعة أيام . أفرغ كأسه دفعة واحدة كأنه أراد أن يتحداها وقد أمتقع وجهه واضطرمت عيناه وقال :

ـ هذه خمر رديئة ولا يمكن أن تسكرني .

ـ ولو ! انك مخطىء .

ـ نعم . أنا مخطىء ... أقضي حياتي كلها وأنا على خطأ ... انك لم تأتي بجديد .

كان يحاول أن يبدو فظا شرسا من غير سبب ، فأخذت تتفحص قائمة الطعام لمجرد تجنب النظر في عينيه البائستين اللتين تراقبانها بغير هوادة أو رحمة . ووقف الساقي الى جوارهما ، فقالت رينيه :

ـ أعطني فطيرة

وقال فلافيير :

ـ وأنا أيضا .

وبمجرد أن ابتعد الساقي : خاطبها قائلا :

ـ انك لا تكادين تأكلين شيئا ... كانت لك شهية كبيرة فيما سبق .

واستطرد في رفق وشفتاه تختلجان شيئا ما :

ـ كنت تأكلين ثلاث أو أربع فطائر بسهولة .

ـ أنا ... أنني ...

ـ نعم .. ألا تذكرين ... جاليرى لافاييت ...

ـ هل تعود الى هذه القصة مرة أخرى ؟

ـ نعم . فهى قصة زمن كنت سعيدا فيه .

وتنهد . وبحث في جيوبه ثم في حقيبة رينيه عن سجاير وعيدان من الثقاب وهو لا يفتأ ينظر اليها فقالت في تخاذل :

ـ لا يجب أن تدخن .

ـ أعلم ذلك ... ولكن يروق لى أن أبقي مريضا ... أما اذا مت ...

وأشعل سيجارته وهز عود الثقاب أمام عيني رينيه واستطرد :

ـ كلا . لا أهمية لهذا أيضا ، فانك قلت لى ذات يوم ان الموت لا يؤذى .

هزت كتفيها في اعياء في حين أخذ يقول :

ـ نعم . انك قلت لى ذلك بل أنني أستطيع أن أؤكد لك أين كان ذلك ... كنا في كوربيفوا ... على شاطيء السين ... أرأيت .. أن لى ذاكرة قوية .

واعتمد بمرفقه فوق المائدة . وكان يضحك وقد أطبق أحدى عينيه بسبب الدخان .. وأحضر الساقي الفطيرتين فقال :

ـ هيا ، كلى ... الفطيرتين معا فلم أعد أشعر بجوع .

توسلت رينيه اليه قائلة :

ـ أن الناس ينظرون الينا .

ـ ولماذا ... ان من حقي أن أقول انني لم أعد أشعر بجوع ... هذه دعاية طيبة للمحل .

ـ لا أدرى ما بك اليوم .

ـ لا شيء يا حبيبتي ... لا شيء ... انني مرح ... لماذا لا تستخدمين الشوكة ؟.. كنت تأكلين بالشوكة فيما سبق .

أبعدت طبقها وأخذت حقيبتها ونهضت قائلة :

ـ أنك فظيع .

ونهض بدوره . كانت قد نطقت بالحق فقد التفتت الأنظار اليها وشيعها الحاضرون بنظراتهم ولكنه لم يحس بأى خجل ، فان الناس كأنهم غير موجودين بالنسبة له . كان يحس أنه فوق القيل والقال ، فمن هذا الذى يرضي أن يعيش ساعة واحدة مما يعيشه هو منذ أيام . لحق برينيه على مقربة من المصعد وراقبهما العامل خلسة أما هى فمسحت أنفها وأخفت وجهها خلف حقيبتها متظاهرة بأنها تتجمل . كانت تبدو أكثر حسنا وأبهى جمالا وهى على وشك البكاء . أما فلافيير فكان يرى أن من العدل أن تأخذ نصيبها من العذاب هى الأخرى . أجتاز الممر الطويل في هدوء ودخلا الغرفة وألقت بحقيبتها فوق الفراش وقالت :

ـ لا يمكن أن نبقي على هذه الحال ... هذه الاشارات المتكررة التي لا أفهم لها معني ... وهذه الحياة التي تكرهني عليها ... كلا .... انني أفضل أن نفترق ... سوف ينتهى بي الأمر الى الجنون .

لم تبك . ولكن غشيت عينيها غشاوة وبدت نظراتها ذائفة ، وابتسم فلافيير في حزن وقال :

ـ ألا تذكرين ؟... كنيسة سان نيكولا ... كنت قد فرغت من صلاتك وبدا عليك الشحوب كما يبدو عليك الآن ؟

جلست في بطء على حافة الفراش كما لو أن يدا خفية أرغمتها على الجلوس وتحركت شفتاها قائلة :

ـ كنيسة سان نيكولا ؟

ـ نعم ... هى كنيسة في قلب الريف ، على مقربة من مانت ... كان ذلك قبل أن تموتي بقليل .

ـ ما هذا الذى تقول ... قبل أن أموت ؟

وفجأة ألقت بنفسها فوق الفراش دافنة وجهها في غطاء الفراش ، وأخذ كتفاها يهتزان وهي تتشبح بالبكاء . وهزت الزفرات كتفيها . جثا فلافيير بجوارها وأراد أن يداعب رأسها ولكنها أقصته عنها مسرعة قائلة : - لا تلمسني .

فقال : هل أخيفك ؟

- نعم .

- هل تحسبينني ثملا ؟

- كلا .

- اذن فأنت تعتقدين أنني مجنون .

- نعم .

نهض واقفا وتأملها لحظة ثم مر بيده على جبينه وقال :

- قد يكون هذا صحيحا على كل حال ... ومع ذلك فهناك ذلك العقد .... كلا . دعيني أتكلم ... لماذا لا تلبسينه ؟

لأنني لا أميل اليه .. وقد سبق أن قلت لك ذلك .

- أو لأنك كنت تخافين أن أعرفه ... هذا هو السبب الحقيقي ، أليس كذلك ؟

أدارت رأسها في رفق ونظرت اليه من خلال شعرها المضطرب وقالت : - كلا

- هل تقسمين ؟

- طبعا .

وفكر هنيهة وهو يرسم بطرف حذائه أشكالا معقدة في صوف السجادة :

- تقولين أن الماريان هو الذى أهداه اليك ؟

اعتدلت على أحد مرفقيها وعقدت ساقيها تحتها كما لو كانت

تريد أن تبدو أصغر مما هى في الواقع ، ونظر اليها في قلق وهى تقول :

ـ قال لى أنه اشتراه من باريس من محل بشارع سانت هونوريه .

ـ منذ متي ؟

ـ انني قلت لك هذا أيضا ... أنك تضطرني الى تكرار أقوالى .

ـ تكلمي اذن ... منذ متي ؟

ـ منذ ستة شهور .

كان هذا جائزا على كل حال .. ولكن لا . لم يكن جائزا على الاطلاق ، فلو صح هذا فانها تكون صدفة عجيبة حقا . وصاح :

ـ انك تكذبين .

ـ ولماذا أكذب ؟

ـ لماذا . وهل أعلم ..؟ أعترفي اذن .. أنت مادلين جيفين ؟

ـ كلا ! لا تزعجني من جديد .. أرجوك اذا كنت لا تزال تعشق هذه المرأة فدعني .. أنني أفضل أن نفترق .. سأذهب .. أنني لقيت منك الكفاية .

ـ ان هذه المرأة ماتت .

وتردد . كان يشعر بالظمأ الى حد أنه اضطر الى السعال ليخفف من حدة النار التي تحرق حلقه واستدرك يقول :

ـ أو بمعني أصح بقيت ميتة فترة من الزمن .. ولكن .. هل يمكن للمرء أن يبقي ميتا فترة من الزمن ؟

فتأوهت قائلة :

ـ كلا .. أسكت .

وطبع الذعر على وجهها قناعا أصفر فارتد بضع خطوات وقال :

ـ لا تخشي شيئا .. هل ترين ..؟ أنني لا أريد أن أؤذيك .. أنني أنطق بكلمات غريبة ولكن الذنب ليس ذنبي .. هل سبق أن رأيت هذا قبل اليوم ؟

قال ذلك وهو يفتش في جيوبه . ولم يلبث أن ألقي القداحة الذهبية فوق غطاء المائدة فأطلقت رينيه صيحة حادة وتراجعت حتي الجدار وهى تقول :

ـ ما هذا ؟

ـ خذيها . انظرى اليها .. ما هى الا قداحة .. خذيها والمسيها .. وأوكد لك أنها قداحة أنها لن تنفجر في وجهك .. حسنا .. ألا تعيد الى ذاكرتك شيئا ما ؟

ـ كلا ..

ـ ولا حتي متحف اللوفر؟

ـ كلا ..

ـ أنني التقطت هذه القداحة بجوار جثتك .. واذا توخينا الحق فلا يمكن أن تكوني قد أحتفظت بذكرى على هذا .

وأفلتت من بين شفتيها صيحة مكتومة فلم تستطع رينيه أن تمسك دموعها وقالت :

ـ اليك عني .. اذهب ..

وعاد فلافيير يقول :

ـ احتفظى بها فهى ملك لك .

ولمعت القداحة بينهما وبدا كأن بريقها يقيم بينهما سدا .. سدا

كان فلافيير يرى خلفه رينيه التي يصر على ايلامها من غير سبب .. نعم ، من غير سبب .. واضطرمت وجنتاه وسار بخطوات متخاذلة نحو الحمام وشرب جرعة من الماء .. كان له مذاق الدواء المطهر . كان لا يزال يريد أن يلقي عليها أسئلة أخرى كانت تتحرك في كيانه كما لو كانت ديدانا تنهش أعصابه ولكنه آثر أن ينتظر ، فقد دفع مادلين الى الفرار بتعجله وحماقته ولكنه سوف يعيدها على عتبة الحياة مرة ثانية شيئا فشيئا وسوف يفرق بينها وبين رينيه . وستأتي اللحظة التي تتذكر فيها . وأدار المفتاح في الباب فقالت :

ـ لن أبقي هنا .

ـ أين تذهبين ؟

ـ لا أدرى . ولكنني لن أبقي هنا .

ـ أعدك الا أقترب . لن أتحدث عن الماضي بعد الآن ..

وسمع أنفاسها سريعة متلاحقة . وأحس بأنها تراقب أقل حركة وهو يخلع ثيابه وقالت :

ـ خذ هذه القداحة .

نطقت بهذه الكلمات كما لو كانت تتكلم عن أفعى . والتقط فلافيير القداحة قائلا :

ـ ألا تريدين الاحتفاظ بها حقا ؟

ـ كلا . أريد أن تتركني في هدوء . يكفيني مالقيت من شقاء وبؤس أيام الحرب واذا كان لا بد لى الآن ..

وطفرت منها دمعة فأخذت تبحث عن منديلها . ولكن فلافيير ألقي بمنديله ، ولكنها تظاهرت بأنها لم تره فقال :

ـ ولماذا تغضبين ؟ أؤكد لك أنني لم أشأ أن أكون بغيضا .. لنبق صديقين ..

التقط منديله وجلس على حافة الفراش ومسح دموعها في حركات مرتبكة ، وظلت الدموع تنساب على وجنتي رينيه . وعاد يتوسل اليها قائلا :

ـ كفي . لا موجب لكل هذه الدموع .

وأسند رأسها في تجويف كتفه وراح يهدئها في هدوء وهو يقول في صوت خافت :

ـ نعم . هناك لحظات لا أدرى خلالها ما بي .. أن الذكريات .. آه .. لا يمكنك أن تفهمى لو أنها ماتت في فراشها في هدوء لتألمت بطبيعة الحال ولكنت نسيتها مع الزمن ، ولكن .. أستطيع على كل حال أن أقول لك ذلك .. أنها أنتحرت .. ألقت بنفسها الى الأرض من عل .. ولا أدرى لأى سبب . ومنذ خمس سنوات وأنا ألقي على نفسي هذا السؤال .

زفرت المرأة زفرة صماء هزت كيانها وهى أسيرة بين ذراعيه وعاد يقول :

ـ هل ترين الآن ..؟ لقد رويت لك كل شيء .. انني بحاجة اليك يا صغيرتي .. لا يجب أن تهجريني لأنني في هذه المرة سوف أموت .. نعم أنني ما زلت أحبها . وأحبك أنت أيضا .. وهو نفس الحب . حب لم يحس به رجل من قبل .. حب من الممكن أن يكون رائعا لو أنك أردت القيام بمجهود .. لو أنك أردت أن تذكرى ما مضي .. بعد وقوعك من البرج .

حركت المرأة رأسها في حدة ولكنه شدد الضغط على ذراعيها قائلا :

ـ دعيني أذكر لك شيئا .. سأقول لك شيئا .. شيئا لم أدركه غير هذه الأيام .

وبسط يده متحسسا وأطفأ النور . وثقل جسدها على كتفه ولكنه لم يحاول أن يغير وضعه . وبقي كل منهما ملتصقا بالآخر في جوف الظلام واستطرد يقول في صوت أشبه بالهمس :

ـ طالما خفت أن أموت .. وموت الغير يزعجني دائما لأني أشعر بأنه نذير بموتي أنا .. وموتي أنا لا أستطيع أن أتقبله كأمر لا بد منه .. أوشكت أن أؤمن بالله لقوله أنه قادر على أحياء الموتي .. لم أصدق هذا القول أبدا ولكنني آمنت به عندما رأيتك تبعثين بعد أن طواك الموت .. واذا كان هذا حقا .. واذا أردت أن تطلعيني على السر فلن أشعر بالخوف بعد اليوم . سأنسي أقوال الأطباء لى . سوف تذكرين لى .

وخفض عينيه نحو وجهها المضطرب وبدت عيناها فارغتين وتبين شكل الجبين والوجنتين والذقن في غموض . كان قلبه مفعما بالحب ونظر اليها ولعله كان ينتظر منها كلمة .. وتناهى الى سمعه صرير الترام وهو يدور في المنحني ولمعت شرارات انعكس ضوؤها على الجدار والسقف وتألقت عينا رينيه ببريق أخضر وأوشك فلافيير أن يبتعد وقال :

ـ اطبقي عينيك .. لا تنظرى الى هكذا ..

ولم يعد يشعر بذراعه الذى أصابه الخدر وبدا له هذا الجزء من جسده كما لو كان ميتا . وتذكر اللحظة التي ثقلت فيها مادلين على ذراعه وهى شبه غريقة واضطر فيها أن يكافح في سبيل حياته هو بالذات . وأحس في هذه الليلة بأن شيئا يجذبه الى أسفل ولكنه لم يشعر بأى رغبة في الكفاح . كان ميالا الى الاستسلام والى العدول عن أن يكون المرشد والمدافع فهى التي تعرف السر على كل حال . وأحس بأن النعاس يغلبه وحاول أن يتكلم ثانية

وأن يعدها بشيء ما ولكنه لم يعد غير شبح أو حلم مبهم وأدرك في شيء من الابهام انها تتحرك لتنضو عنها ثيابها من غير شك وود لو أن يقول لها : مادلين ، أبقي معي . وتحركت شفتاه استغرق فلافيير في النوم ولم يشعر بالهدوء الا في الصباح . ولم يدر أنها كانت تنظر اليه طويلا على ضوء الفجر وأن عينيها مغرورقتان بالدموع .

وعندما استيقظ تماما شعر بالارهاق وبالصداع . وجاءه من غرفة الحمام صوت رينيه يقول :

ـ دقيقة أخرى .

تأمل فلافيير صفحة السماء الزرقاء فوق أسطح البيوت وهو لا يفكر في شيء ولا يشعر بأى غبطة .. آه .. نعم . أن الحياة مستمرة .. نفس الحياة السخيفة . وارتدى ثيابه في بطء وهو يحس باليأس . شأنه في ذلك شأن كل يوم . وأحس بحاجته الى الشراب ، وهو احساس أصبح يحس به كل صباح فقد كان الكأس الأول الصغير يجلو ذهنه فلا يلبث أن يجد أشجانه كما لو لم تتغير ، وتدور في رأسه كالخناجر الحادة ، وظهرت رينيه في منامه حلوة اشتراها لها بالأمس وقالت :

ـ تفضل : :

ـ يمكنني أن أنتظر .. هل تمتعت بالنوم ..؟ أنني لست على ما يرام اليوم .. ألم أصرخ أثناء الليل ؟

ـ كلا ..

ـ انني أصرخ أحيانا أثناء نومي وأرى كوابيس .. أوه ، هذه حالتي منذ طفولتي . ليس الأمر خطرا .

وتثاءب . ونظر اليها . لم تكن هيئتها هى الأخرى توحى بأنها قضت ليلة ناعمة جميلة . ولكنها كانت تثير جزعه منذ أصابها

الهزال . وبدأت تمشط شعرها . ومرة أخرى أحس فلافيير بدافع أقوى منه يجعله يقول :

ـ أعطني هذا المشط .

وأخذ المشط وقدم لها مقعدا قائلا :

ـ اجلسي هنا .. أمام المرآة .. سوف أريك .. هذا الشعر فوق الكتفين أصبح (مودة) قديمة .

واستطرد يقول :

ـ أريد أولا أن تصبغي شعرك بالحناء فان به خصلات فاتحة وأخرى داكنة وهذا ليس بالأمر المستحب

وكان ملمس الشعر بين يدى فلافيير دافئا ، تنبعث منه رائحة أشبه برائحة العشب المحروق وراحت تموجاته الندية تتصاعد في نشوة وكأنها فقاعات نبيذ جديد . أمسك فلافيير أنفاسه وانقادت رينيه هي الأخرى للتجربة اللذيذة وهى تضغط بأسنانها على شفتها السفلى ولم تلبث أن تشكلت الحلقة تدعمها الدبابيس . ولكن لم يكن لفلافيير الدراية الكافية وكان كل ما يريده هو اقامة الحلقة التي تضفي على رأس مادلين تلك الفتنة القديمة التي لم يمكنه أن ينساها . وانحني ليتم عمله ووضع دبوسا آخر ثم نهض من مكانه وأرتد خطوة الى الخلف ونظر في المرآة التي أمامه ، الى الوجه الجديد .. آه ، يا لهذا الوجه .. ! انه يراه أخيرا تماما كما وصفه له جيفين مرارا .. وكما رآه هو فيما سبق ، وجها شاحبا غامضا تحدق عيناه في لا شيء .

ـ مادلين .. !

نطق باسمها ولكنها لم تسمعه . أهى صورة تعكسها المرآة أمامه أم هى رؤيا داخلية أشبه بتلك الصورة التي ينتهى المرء الى أن

يميزها في كرة من البللور ..؟ ودار حول الكرسي في صمت وعرف أنه لم يخطىء فان حركات المشط البطيئة ولمسات أصابعه الحانية أغرقت الفتاة في نوع من الحلم والتأمل ، ولا ريب أنها أحست بأنه ينظر اليها لأنها تنهدت وبذلت مجهودا لتحول رأسها اليه وتبتسم :

وقالت :

ـ لو تركت العنان لنفسي لحظة واحدة أخرى لغلبني النعاس .

وألقت نظرة شاردة على تسريحتها ثم قالت موافقة :

ـ لا بأس .. نعم ، هذا أفضل من ذى قبل .. ولكني أعتقد أنها ليست متينة .

وهزت رأسها فسقطت الدبابيس . وعادت فهزتها مرة أخرى فانفكت الحلقة وانساب الشعر فوق كتفيها وضجت بالضحك وضحك فلافيير بدوره لفرط ما انتابه من الخوف . وتمتمت تقول : ـ يا حبيبي المسكين !

وكان لا يزال يضحك ويداه على صدغيه وأحس بأنه لن يستطيع البقاء في هذه الغرفة وأنه يختنق . كان بحاجة الى الشمس والضجيج والناس ، كان لا بد له أن ينسي ما رآه سريعا . وكانت حركاته كلها مضطربة ، وسألته قائلة :

ـ هل أسبقك وأهبط ؟

ـ كلا .. انتظريني .. ألا يمكنك الانتظار ؟ وتغير صوته فجأة بحيث أسرعت الى الباب وسألته :

ـ ما بك ..؟

ـ أنا . لا شيء .. وماذا تريدين أن يكون بي ؟

ورأى أنها عادت فمشطت شعرها من جديد كما كان من قبل .

وعجز عن تحليل شعوره فلم يدر اذا كان هذا الأمر قد سره أو كدره . وربط ربطة عنقه كيفما اتفق وارتدى سترته ثم تشبث بذراع رينيه فداعبته قائلة :

ـ ها أنذا أمامك لم أهرب .

ولكنه لم يشعر بأى حاجة الى الضحك . وخرجا من الفندق وراحا يتمشيان وقد أطبق عليهما السأم وأحس فلافيير بالتعب وكاد الصداع يحطم أعصابه فاضطر الى الجلوس في متنزه عام وهو يقول :

ـ معذرة . أظن أنه لا بد لنا من العودة . لست على ما يرام .

ضغطت شفتيها وتجنبت النظر اليه ولكنها عاونته على العودة الى الفندق في رفق وجعلت ترفو بعض الجوارب في حين تمدد هو فوق الفراش محاولا استعادة قواه . كم يوما سترضي أن تبقي في هذه الغرفة الضيقة الكئيبة التي تبدو كغرفة الانتظار في احدى المستشفيات ؟ لم يكن من حقه احتجازها وأدرك تماما أنها غير مطمئنة الى وضعها هذا . وعند الظهر أراد أن ينهض ولكن دوارا خفيفا خذله واستبقاه فوق الفراش فقالت :

ـ هل تريد أن أضع لك (كمادات) على جبينك ؟

ـ كلا .. كلا .. سيزول ما بي بعد قليل . اذهبي وتناولى غذاءك .

ـ أتقول حقا ؟

ـ نعم اذهبي .

ومع ذلك فانها ما كادت تغلق الباب خلفها حتي استولى عليه قلق كبير وتوترت عضلات وجهه . كان هذا سخفا طبعا فكل حاجياتها منسقة في الدولاب ، وهى لذلك لن تهرب أو تختفي .

وفكر قائلا (ولكنها قد تموت) ورفع يديه الى جبينه ليبعد عنه هذه الفكرة الجنونية . ومر الوقت . كان يعلم أن الخدمة بطيئة في المطعم ولكن كان في مقدورها مع ذلك أن تسرع . أنها تنتهز الفرصة التي سنحت لها لتلتهم كل الأنواع التي تحلو لها والتي كانت تمتنع عنها قبل ذلك حتي لا تكدره . شد ما يمقت هذه الناحية الحيوانية فيها ، وشد ما تألم في مقهى كوربيفوا ، عندما خرجت من المطبخ وهي ترتدى ثوبا جعلها تبدو أشبه بفتيات الصالات . مضت على انصرافها ساعة كاملة فهل كانت جائعة الى هذا الحد ..؟ وزاد الغضب واليأس من صداعه وصعدت دموع العجز الى عينيه . وعندما عادت نظر اليها في اشمئزاز وقال :

ـ ساعة ونصف لتناول شريحة من البفتيك ؟

فضحكت وجلست الى جواره وأخذت يده وقالت :

ـ أنهم قدموا لنا (كابوريا) . كانت أكلة لذيذة .

وتشبث بيدها ، وعاد اليه هدوؤه في بطء. ولم يلبث أن غلبه النعاس وأصابعه تضغط على يدها كما لو كان يمسك لعبة ثمينة . وفي نحو الرابعة مساء كان لا يزال متعبا ولكنه شعر بأن صحته تحسنت وأراد أن يخرج وقال :

ـ لن أذهب بعيدا . سوف أستشير طبيبا غدا .

وهبطا . وفي الخارج تظاهر بأنه نسي شيئا وقال :

ـ هل لك أن تنتظرى ؟ سأتحدث تليفونيا .

ـ وقفل عائدا .. ودخل البار وقال :

ـ كأس الويسكي .. أسرع .

كان يضطرب لفرط ما به من لهفة مكبوتة كالمسافر الذى يخشي ألا يدرك قطاره ، فقد كان يخشي أن تبتعد أثناء ذلك وأن

تدور بالمنحني وأن ... وشرب كأسه في جرعات سريعة واستمتع بالنار البطيئة ، وعندما وقعت عيناه على قائمة الطعام فقال :

ـ أهذه قائمة طعام ظهر اليوم ؟

ـ نعم يا سيدى ..

ـ ولكني لا أرى فيه (كابوريا) .

ـ لم نقدم كابوريا اليوم يا سيدى !

أفرغ فلافيير كأسه ومسح شفتيه بمنديله في تفكير ثم قال

ـ أضف هذا الى حسابي .

ثم أسرع ليلحق بها . وكان ظريفا جدا . وتحدث معها كثيرا . وكان في مقدوره أن يكون متألقا عندما يريد . واصطحبها للعشاء في مطعم فخم على مقربة من الميناء القديم . هل كانت تدرك مدى الغيظ الكامن خلف كلماته المرحة ، وهل لحظت حدة بعض نظراته ..؟ لقد كانت حياتهما كلها قائمة على التكلف ، وكان فلافيير رجلا غريب الأطوار .

وعادا في وقت متأخر وبقيا راقدين مدة طويلة . وفي منتصف النهار شكا فلافيير من ألم في رأسه فالت :

ـ ألا ترى أننا لا نكاد نبتعد عن حياتنا الرتيبة البسيطة ..

ـ لست قلقا الا عليك أنت .. فسوف تضطرين الى تناول الغذاء بمفردك اليوم أيضا .

ـ أنني لن أغيب طويلا .

ـ أوه .. لا تتعجلى .

وأصغى فلافيير الى خطواتها وهى تبتعد ثم فتح الباب في هدوء وأسرع الى المصعد وألقي نظرة سريعة على قاعة الطعام فلم ير لها أثرا . فخرج ورآها في آخر الشارع فأسرع وراءها وهو يحدث نفسه

قائلا : (قضي الأمر وبدا كل شيء من جديد) . كانت تلبس التايير الرمادى . وأخذت أغصان أشجار الزيزفون تهتز حولها . وكانت تسير في نشاط وخفة مطرقة الرأس قليلا لا ترى شيئا تقريبا . وكان هناك ضباط كثيرون كالمرة السابقة . وكانت الصحف قد طلعت اليوم أيضا بعناوين ضخمة أهاجت ذكرياته القديمة .. الهجوم .. القاء القنابل .. الهزيمة العاجلة . ودلفت الفتاة الى شارع صغير فاقترب فلافيير . كان شارعا ضيقا تحوطه الحوانيت من الجانبين .. مكتبات ومحلات لبيع الآثار والعاديات .. أين سبق له أن رأى هذا الشارع ؟ أنه يشبه شارع الآباء القديسين . واجتازت رينيه الشارع وسارت الى فندق صغير ولم يجرؤ على أن يتبعها . واحتجزه خوف وهمى أمام الفندق كانت هناك لافتة عليها هاتان الكلمتان : فندق سنترال ، وبالباب لافتة مكتوب عليها (العدد كامل) ومع ذلك اجتاز الشارع بساقين متخاذلتين وأدار مقبض الباب الذى أدارته منذ لحظات . ورأى في المدخل رجلا يقرأ جريدة نظر اليه ثم سأله قائلا : ـ نعم .؟

فقال فلافيير :

ـ السيدة . السيدة ذات التايير الرمادى .. من هى ...؟

ـ تلك التي صعدت الآن ؟ ـ نعم .. ما إسمها ؟

فأجابه الرجل بلهجة أهل الجنوب :

ـ بولين لاجرلاك .

- ٥ -

عندما عادت رينيه كان فلافيير لا يزال راقدا فقالت له :

ـ كيف حالك ؟

ـ أحسن قليلا .. سوف أنهض .

ـ لماذا تنظر الى هكذا ؟

ـ أنا ؟

وحاول أن يبتسم وطرح الغطاء بعيدا عنه وعادت هى تقول :

ـ إن لك هيئة غريبة .

ـ أبدا .. أؤكد لك .

مشط فلافير شعره ، ونفض سترته وكانت الغرفة من الضيق بحيث كانت أقل حركة تقرب بينهما ، فكانا يتلامسان باستمرار . ولم يجرؤ فلافير على الكلام ولا على السكوت وود لو أنه كان بمفرده ورأسه بين يديه وابهاميه في أذنيه .. وحده مع ذلك السر الرهيب .

وقالت رينيه :

ـ ما زلت في حاجة الى بضعة (مشاوير) وقد صعدت لأراك .

ـ مشاوير ..؟ أية مشاوير ..؟

ـ حسنا . أريد أن أذهب أولا الى الحلاق فأنا بحاجة الى شامبو ، ثم إنني اود أن أشترى زوجا من الجوارب .

شامبو وزوج من الجوارب ..؟ كان هذا أمرا طبيعيا يدعو الى الاطمئنان . ثم ان وجهها في تلك اللحظة كان رائقا صافيا لا يوحى بالكذب .

وسألته قائلة :

ـ هل أستطيع ؟

فأتي بحركة كلها رقة وحنان وقال :

ـ طبعا ، فأنت لست سجينة هنا .. أنك تعرفين جيدا أنني أنا السجين .

وخيم بينهما الصمت من جديد . ووقفت أمام المرآة تعيد تجميل وجهها . ووقف فلافيير خلفها يراقبها فقالت :

ـ انك تضايقني أيها الحبيب .

كانت بعض خصلات من شعرها تهتز حول أذنيها ، وشريان صغير ينبض فوق صدغها .. كانت الحياة هنا في ذلك الجسد ، تشع عطرا رقيقا . وألقي أصبعه على كتف المرأة في رفق . وكان جسدها ناعما دافئا فسحب يده على الفور ، وقالت وهي تميل بوجهها لتضع أحمر الشفاة .

ـ ماذا بك .؟

تنهد .. رينيه .. مادلين .. بولين .. وهل هناك جدوى من أن يسألها ثانية ..؟ وقال :

ـ اذهبي وعجلي .

وناولها قفازها وحقيبتها قائلا :

ـ سأنتظرك في البار .. هل تعودين .؟

فتحولت اليه وهتفت :

عجبا !... ماذا جرى لك ؟

حاول أن يبتسم ... كان تعسا جدا ، يقر كل شيء فيه بالهزيمة بأنها ترثي له وأنها تتردد في الإنصراف ، تماما كما يتردد المرء في مفارقة مريض مقضي عليه . كانت تحبه وقد اختلطت في وجهها سمات شديدة من القسوة ، والرقة في نفس الوقت . تقدمت خطوة ثم خطوتين ورفعت رأسها نحوه وقبلت فمه . هل كانت هذه مجرد تحية أم كانت وداعا ؟... وداعب وجنتها في حياء

وقال : ـ أصفحي عني ، أي أوريديس الصغيرة .

خيل اليه أنها أمتقعت وتلاحقت ضربات أهدابها وقالت :

ـ كن عاقلا يا حبيبي واستجم ... هل لا بد لهذه الرأس أن تشتغل دائما ؟

وفتحت الباب وألقت على فلافيير نظرة أخيرة ثم هزت أصابعها وأغلقت الباب خلفها . ووقف فلافيير وسط الغرفة ينظر الى الباب ويتساءل هل تعود ... ومتي .... وأوشك أن يركض خلفها وأن يصيح بكل قوة : مادلين ... ولكنه نطق بالحق منذ لحظات ... أنه هو السجين فما الذى يرجوه ؟.. أن يبقيها الى جواره في هذه الغرفة ... وأن يراقبها ليلا ونهارا ... أنه مهما راقبها فلن يتوصل أبدا الى ما هو مخبوء في ثنايا ذاكرتها ... إن مادلين الحقيقية كانت حرة ، وهى تعيش في مكان غير هذا أما هذه الصورة ، التي تتركها له ، فما هى الا صدفة وسوف تأتي اللحظة التي لا بد فيها من الأنفصال فقد كان حبهما ممسوخا مآله الموت ... نعم الموت .

ضرب فلافيير الكرسي الذى أمام الطاولة بقدمه .. ما هذا الهراء ؟... والفندق الذى استأجرت فيه تلك الغرفة ، وكل هذه المشتروات التي تقوم بها كلما أمكنها الأفلات منه ... ألا يدل كل هذا على أنها تنوى الهرب وتعد له العدة ؟.. لم يكن هناك أى غموض ، فبعد جيفين جاء الماريان وسيأتي رجل آخر بعد فلافيير ... أهو غيور على مادلين ... هل لهذا معني ؟... وأشعل لفافة بالقداحة الذهبية وهبط الى البار . لم يكن يشعر بالجوع ، بل لم تكن به رغبة في الشراب ، ولكنه مع ذلك طلب كأسا من الكونياك ليحق له الجلوس . ولم يكن هناك غير مصباح واحد

مضاء فوق الزجاجات المرصوصة . وكان الساقي جالسا يقرأ جريدة فأمسك فلافيير كأسه في يده وأرسل رأسه الى الخلف واستطاع أخيرا أن يطبق عينيه . وعادت صورة جيفين الى ذهنه ... لقد عامل جيفين بطريقة بغيضة وها هو الآن يجد نفسه في نفس الموقف الذى كان جيفين فيه ... بل أنه كان أشبه في هذه اللحظة بجيفين ، فهو يعيش بدوره مع امرأة غريبة عنه هى في الوقت نفسه عشيقته أن لم تكن زوجته بتعبير أصح . ولو أنه كان يعرف أحدا فلعله كان يسرع اليه ليسأله النصح والمشورة ... لو أن له صديقا لتوسل اليه أن يراقب رينيه .. نعم ، بلغ به الحال الى هذا الحد ، وعاد يرى بعين الخيال جيفين في مكتبه ويسمعه يقول : (أن أمرها غريب ، وهى تثير قلقي) .

ـ أشار فلافيير الى الساقي وطلب كأسا ثانية .

لحسن الحظ أن الشك لم يرق الى جيفين أبدا .. ولو أنه عرف لماذا عساه كان فاعلا ... لا شك أنه كان يلجأ الى الشراب هو الآخر ... أو لعله كان يطلق رصاصة على صدغه لأن هناك حقائق لا يمكن أن يفكر المرء فيها بدون أن يشعر بدوار ... وكان لا بد أن يقع الاختيار عليه هو وحده دون عن جميع الرجال ليحمل هذا السر ... وهو سر لا يبعث على البهجة إطلاقا بل على العكس يزيد من قسوة الحياة ... أوه ، أحس بأنه هادىء جدا وأنه صافي الذهن ، بل أنه كان جديرا بأن يعود القهقرى من غير أن يرتعش فقد رأى الجثة في أسفل البرج ورأى الدم فوق الأحجار الوجه مشوه ، والأطراف مهشمة معوجة ، وبكى جيفين بعد ذلك أمام جسد زوجته وألبستها البوابة ثيابا أخرى غير التي تمزقت وفحص رجال البوليس الجثة فحصا طويلا ... كان فلافيير

مطمئنا كل الاطمئنان من هذه الناحية . ولم يكن الدوار يهاجمه الا عندما يفكر في بولين لاجرلاك التي أنتحرت ، واذا ما عادت الى ذاكرته وهو يرتجف كلمات مادلين الأولى (أن الموت لا يؤذى) ... واذا ما استعاد الى ذهنه على وجه الخصوص منظر الكنيسة واصرار مادلين الهادىء ... لقد أصبحت الحياة عسيرة جدا بالنسبة لها . فماذا فعلت ؟... أختفت بكل سهولة . ولكن هل كانت عيشة رينيه أسهل ! ... كلا ... اذن ؟... وأخذت رأس فلافيير تدور وتملكه أحساس عميق بالارهاق والفراغ غير المحتمل .

عاد فلافيير يشير الى عامل البار ويطلب كأسا أخرى .

أحس فلافيير هذه المرة بالظمأ ونظر في يأس الى الستائر الداكنة التي تحيط به والى صفوف الزجاجات خلف البار ... ألا يزال على قيد الحياة ؟... نعم ... فان جبينه يندى عرقا ، ويديه تكادان تحترقان فوق المتكأ . أنه على قيد الحياة وذهنه يومض في هذه اللحظة وميضا يفزعه ، وأدرك تماما استحالة الموقف وسخافته ، فهو لم يستطع بعد أن يضم رينيه اليه ولن يستطيع كذلك أن يوجه اليه الحديث كانت مختلفة أختلافا بينا ، ومنذ الاكتشاف الذى حدث في الفندق الصغير شعر بحاجز يفصل بينهما ويفسد صداقتهما . فهى سوف تذهب حتما الى رجل آخر يحبها وهو على جهل من أمرها ، أما جيفين لقد أوشك أن يعرف ولذا أنتحرت والآن .

أراق فلافيير كأسه وهى نصف فارغة وانسابت الخمر فوق ركبته فمسحها بمنديله ثم أمسك الكأس التي انزلقت في خجل وألقي نظرة الى الساقي الذى كان لا يزال يقرأ ، وتملكه الحنق لأنه

لم يفطن الى الحقيقة قبل ذلك فهى الآن ستهرب بدون شك ولا ريب انها أعدت أمتعتها هناك في الفندق الصغير ولعلها في هذه اللحظة بالذات تأخذ تذكره الى أفريقيا ... أو الى أمريكا ... وسيكون هذا أسوأ من الموت .

نهض واقفا فشعر بأن الأرض تدور به وأسرع يتثبت بمقعده ، في حين هرع اليه عامل البار وأخذ بيده قائلا :

ـ هل يشعر السيد بألم ؟

ـ كلا ... دعني .

وتشبث بالحاجز البارز المعدني وحدق في غباء في القميص الأبيض الذى أمامه وتمتم يقول :

ـ أنني أحسن حالا ... شكرا ...

وسأله عامل البار : هل لك في شراب منعش ؟

ـ نعم ... اعطني كأسا من الويسكى .

ورفع الكأس الى فمه في شراهة . واشمأز من نفسه لضعفه ، ولكن الشراب رد اليه قواه . سوف يجد وسيلة ليمنع مادلين من الرحيل طبعا ، فهو المسئول وحده عن كل هذا بأشاراته وتلميحاته المتكررة . ولعلها نسيت تقمصاتها السابقة عندما عثر عليها من جديد ، وهو الذى خلق مادلين من جديد ، شيئا فشيئا من غير أن يشك في أنه يعد العدة ليفقدها بهذه الطريقة فكيف يعيد اليها الثقة الآن وكيف يحملها على استئناف الحياة معه كما لو أن شيئا لم يقع .. لقد سبق السيف العزل الآن .

ونظر الى الساعة فاذا بها منتصف الخامسة فخاطب عامل البار قائلا :

ـ أضف هذا الى الحساب .

وتخلت يداه عن الحاجز المعدني وتقدم بضع خطوات مترددا ثم لم يلبث أن تغلب على ما انتابه من وهن فعبر القاعة ونادى أحد صبية الفندق وسأله :

ـ هل يوجد في النواحى حلاق للسيدات ... حلاق شيك طبعا ؟

فأجابه الصبي هناك محل (ماريز) ... وهو أشهر حلاق في الناحية .

ـ أهو بعيد .؟

ـ كلا . إنه على مسيرة عشر دقائق على الأكثر.. اتبع هذا الطريق ثم خذ ثالث شارع على اليسار ... وهو يقع بين محل لبيع الزهور ومقهى ، ولا يمكن أن تخطئه .

ـ شكرا .

وخرج فلافيير. وأدار الهواء رأسه وأدرك أنه أخطأ اذ لم يتناول الغذاء . وكانت الشمس تعكس أشعتها الحامية على قضبان الترام وتجعلها ترسل بريقا شديدا . وكانت الحياة تجرى كما يجرى النهر وهو في فورة فيضانه . وسار فلافيير بجوار الجدران ليفلت من سير الزحام . كان يحاول أن يبقي على هامش الضجيج وكان يتكيء من وقت لآخر على جدران البيوت الساخنة . و اهتدى الى محل الحلاق في غير مشقة واقترب من واجهته كما يقترب الفقير الذى يوشك أن يطلب إحسانا . ورآها ... كان على رأسها غطاء معقد ... كانت هي ... شكرا ... شكرا ... وتجاوز المحل ودخل المقهى .

ـ أعطني شطيرة ، وكأسا من البيرة .

سوف يتوخى الحذر من الآن فصاعدا ... سوف يعني بنفسه

ويستعيد قواه ... لا بد له من أن يكون قويا يمنعها من ... ولكن ، كيف يعيد اليها ثقتها ؟.. هل يمتنع عن تلميحاته وأشاراته ... هل يتركها وشأنها فلا يحملها على الاعتراف ؟

تنهد وعدل عن اتمام شطيرته ، ومجت نفسه البيرة وامتلأ فمه برائحة التبغ . وحاول أن يعتدل في جلسته . كان يستطيع ، من مكانه ، أن يرى الطوار أمام صالون الحلاقة . إنها لن تفلت منه ، إنها ستعود طبعا الى الفندق . كيف يحتمل الليلة الطويلة التي ستأتي بعد ذلك . هل يسألها الصفح ؟. هل يتوسل اليها أن تنسي مشاحناتها ؟... حدق فلافيير في رقعة الأسفلت عبر الزجاج وأحس بأنه يقضي امتحانا عسيرا . كان يفهم نفسه . لن يكف أبدا عن أن يعرف .. فان الذى يحبه فيها ليس كونها مادلين وانما يحب فيها انها حية ترزق . أنه يحب حياتها الفياضة التي لا تريد أن يشاركها فيها أحد . كانت مفرطة الثراء وكان هو فقيرا فقرا مدقعا ولن يقبل أبدا أن ينحي عن السر. اذن ؟

مر الوقت في بطء .. ومن بعيد راح صاحب المقهى يراقب هذا العميل العجيب الذى يتحدث وحده من وقت لآخر والذى لا يفارق الشارع بعينيه . وجعل فلافيير يفكر في حزن . لم يكن هناك أى مخرج . سوف تذهب مادلين حتما فمن المحال أن يحبسها .. ما أن يشكو من الصداع وان يلازم فراشه ... ومن يدرى ، لعل السيف قد سبق العزل ، وقد تخرج الآن فتسير رأسا الى المحطة أو الى أقرب باخرة توشك على الرحيل وما عليه بعد ذلك الا أن يموت .

وخرجت فجأة . ظهرت فوق الطوار كما لو كانت رؤيا . كانت عارية الرأس وشعرها مصبوغ بالحناء ، وقد جمعته في حلقة

كبيرة في مؤخرة رأسها .

وأسرع فلافيير. كانت تسير أمامه في غير إسراع وحقيبتها السوداء تحت ابطها . وكانت تلبس التايير الرمادى الذى إشتراه لها . وبدت تماما كما صورها في أحلامه . واقترب منها كما فعل من قبل على رصيف السين وشم رائحتها ... رائحة الأرض في الخريف ورائحة أوارق مهروسة وزهور ذابلة . وجعل يسير ويده على صدره فاغرا فاه كما يسير النائم أثناء نومه وهو لا يدرى . فاض به الكيل هذه المرة وأحس بقواه تخذله وراح يصطدم بالمارة الذين أخذوا يلتفتون اليه في قلق ... ربما يقع في آخر الشارع ... بل ربما ينفجر بالبكاء ... وسارت هى على مهل نحو أطلال الحى القديم .. إنه أصاب بمراقبته لها فهى لم يكن في نيتها أن تعود الى الفندق . كانت تمشي بجوار الحوانيت غير مكترثة بأى شيء والشمس الغاربة تلقي ظلالها خلفها فتمتد حتي قدمى فلافيير. هل هى تتنزه ؟.. هل هى على موعد مع أحد ؟... لعلها لا تحاول الا الاستمتاع بحريتها قبل أن تعود الى الفندق . أو لعلها الآن في مكان آخر غريب في بلد غريب . وبلغت مادلين رصيف البلجيكيين بخطواتها البطيئة المتئدة . وتوقفت لحظة قصيرة ومالت برأسها نحو أعمدة الجسر المشوهة . وعكس الماء الرمادى هياكل المراكب الشراعية والبواخر الراسية بالقرب من الشاطىء . وراح طفل صغير يشد حبلا مربوطا الى مركب يدفعه الى المرساة ... كان في مرسيليا ومع ذلك فقد ذكره كل شيء بشاطىء كوريفوا ، وتساوى الماضي في تلك اللحظة بالحاضر بطريقة غريبة . وأحس فلافيير بأنه خارج الزمن ... لعل هذه الأمواج الهادئة التي تهز الألواح الخشبية والفاكهة الفاسدة ... بل لعل مادلين نفسها .

لعل كل هؤلاء لا وجود لهم ... ومع ذلك فقد بقيت تلك الرائحة اللاذعة التي لم تستطع روائح الميناء التغلب عليها ... وتوجهت مادلين الى الأحواض وهى تسير بمحاذاة الرصيف . هل تفكر في ركوب باخرة ؟... أو هل تراها جاءت تشاهد المراكب وتحلم بالبلاد التي كان في الاستطاعة أن تهرب اليها ... كان هناك أناس يروحون ويغدون ، ولكن مادلين كانت لا تراهم . كانت تنظر الى الماء الذى انتثرت انعكاسات النجوم على صفحته وكان فلافيير متعبا ولكنه لم يفكر في التوقف . كان ينتظر وقوع ما لا بد منه . ووقع ما لا بد منه على رصيف لاجوليت فقد جلست مادلين الى المنضدة الوحيدة بمقهى صغير وبحث فلافيير عن مكان يختبىء فيه . وكانت هناك ، كالمرة السابقة بعض البراميل .. براميل ضخمة مكتوب عليها بالبوية البيضاء : الى سالج بالجزائر .. سالج اسماعيل ... ولكن في أى حياة سابقة .. وبينما كانت مادلين تكتب كانت الأنوار تضاء في كل مكان على طول الشاطىء وفوق المراكب ... وكان الهواء يرفع ركنا من الورقة بينما راحت يد مادلين تجرى فوقها بسرعة فائقة . لا شك في انها كانت تكتب اليه هو في هذه اللحظة . كانت تحدثه في صوت خافت تماما كما تحدثت الى جيفين في صوت خافت .

كان مريضا من الخوف والحزن ... وطوت الخطاب والصقت المظروف والقت قطعة من النقود فوق المنضدة .

دار فلافيير بالبراميل وقد تملكه شك رهيب . هل في نيتها أن ؟... كانت لا تزال بعيدة عن الشاطىء تسير بين القضبان ... كانت هناك زوارق كثيرة ولكنها كانت تبحث عن مكان مقفر . وكانا يتقدمان أحدهما خلف الآخر ويتجاوزان بواخر ضخمة تكاد

تتلاصق . وكانا يلتقيان من وقت لآخر ببحار منحن فوق حاجز باخرته يهز شرارات سيجارته . وأسرعت مادلين وهى تدلى بيدها الى جانب تنورتها لكى لا ترفعها الرياح . واقتربت من الرصيف في حذر .. ووقف فلافيير في ظل رافعة يراقبها . ولم يكن هناك أحد على مدى البصر. وفي أسفل الصخور كان هناك قاربان يتأرجحان في بطء . وتقدم فلافيير على أطراف قدميه كاللص يبحث عن غنيمة وأحاط كتفي مادلين بذارعه وجرها الى الخلف فصرخت وقاومت ، وقال :

ـ هو أنا ..... أعطني هذه الرسالة .

وأخذ كل منهما يقاوم الآخر. وانفتحت الحقيبة أثناء ذلك وسقط منها الخطاب على الحافة الصخرية ودار حول نفسه ... وحاول فلافيير أن يضع قدمه عليه ولكن نسمة قوية دفعته الى النهر ، وكان لا يزال يضم مادلين اليه فقال :

ـ أرأيت ماذا فعلت ؟

ـ دعني .

ودس الحقيبة في جيبه وجر المرأة قائلا :

ـ إنني أتبعك منذ خروجك من محل ماريز... لماذا أتيت الى هنا ؟... أخبريني .. ماذا كنت تقولين لى في هذا الخطاب ؟... أوداعا ؟

ـ نعم .

فهزها وقال : وبعد ... ماذا كنت تنوين أن تفعلى .

ـ كنت أنوى أن أذهب ... ربما غدا ... كنت سأفعل أى شيء ... فلم أعد أستطيع البقاء .

ـ وأنا ؟

وأحس بفراغ وتوتر في ذهنه وبكتفيه يكاد يحطمها الارهاق والتعب . وقال :

ـ تعالى ... نمشي سويا .

وجرها جرا في شوارع ضيقة تسير فيها أشباح مشبوهة . ولكن فلافيير لم يكن يخشي المتسكعين بل انه لم يكن يفكر فيهم . كانت أصابعه تقبض على مرفق مادلين في قوة . وكان يدفعها أمامه ، وداخله شعور في هذه المرة بأنه يعود معها من مكان بعيد جدا ... من بلد الموت نفسه .

وقال : ان لى الحق في أن أعرف ... أنت مادلين ، هيا اعترفي .

ـ كلا .

ـ من أنت اذن ؟

ـ رينيه سورانج .

ـ ليس هذا صحيحا .

ـ بل هو الحق .

رفع رأسه الى رقعة السماء الصغيرة بين البيوت العالية ، وأحس بأنه يود لو أن يضربها الى أن تموت وعاد يقول في حنق :

ـ أنت مادلين ... والدليل على ذلك أنك ذكرت لصاحب الفندق أن أسمك بولين لاجرلاك .

ـ كان ذلك تضليلا لك .

ـ تضليلا لى .

ـ نعم ، ما دمت تصر على أن أكون هذه البولين كذلك . كنت أعرف أنك ستقوم بالتحقيق وأن هذا التحقيق سيؤدى بك الى الفندق حتما ... وأردت أن تحتفظ بذكرى الأخرى فقط ...

وأن تنسي رينيه سورانج .

ـ هذه التسريحة اذن .. وهذه الحناء ؟

ـ قلت لك السبب ... لكي أمحو رينيه سورانج ... وحتي لا تكون هناك بالنسبة لك امرأة أخرى غير مادلين .

ـ كلا .. انما أريد الاحتفاظ بك أنت .

وشدد الضغط على ذراعها في يأس . وفي الظلام عرفها تماما من خطواتها ومن عطرها ومن هذه الأشياء الصغيرة التي يصورها الحب بدون أى خطأ .. وانبعثت من خلف الجدران أصوات موسيقي خافتة ومن بعيد لبعيد كان مصباح يخبو ضوءه فجأة ثم لا يلبث أن يعلو .

وقال فلافيير :

ـ لماذا أردت الفرار ؟... ألست سعيدة معى ؟

ـ كلا .

ـ بسبب أسئلتي .

ـ بسببها .... وبسبب الباقي .

ـ واذا وعدتك ألا ألقي عليك أى سؤال بعد اليوم ؟

ـ انك لن تستطيع ذلك أبدا يا صديقي العزيز .

ـ اصغى الى ... أن ما أسألك أياه شيء سهل ميسور مع ذلك ... اعترفي انك مادلين فلا نتحدث في هذا الأمر ثانية .... سوف نغادر مارسيليا ونرحل الى الخارج وسوف تطيب لك الحياة .

ـ أنا لست مادلين .

أف لهذا الاصرار العجيب !

ـ بل أنت مادلين وأصدق دليل على ذلك أنك أهتديت الى

طريقتها في تأمل الفراغ وفي الأفلات الى دنيا أخرى غير منظورة .
ـ لدى مشاكلي الخاصة ولا يمكن لأحد أن يحملها بدلا مني .
وأحس بأنها تبكي .. وسارا ، كل منهما يعتمد على الآخر نحو شارع يتلألأ بالأنوار . وأوشكا أن يختلطا بالأحياء ... وأخرج فلافيير منديلا وقال :
ـ أعطني هذا الوجه .
ومسح وجنتيها في رفق ثم قبل عينيها وأخذ يدها وقال :
ـ تعالى . لا تخافي .
وعبرا الشارع واختلطا بالجمهور . وتناهي الى سمعيهما صوت الفرق الموسيقية ، تعزف في المقاهى والبارات . وراحت سيارات الجيب تنطلق مسرعة يقودها رجال يلبسون خوذات بيضاء . وانتشر الباعة المتجولون والمتسكعون بعضهم يطلب نارا والبعض يعرض « سجاير الكامل واللاكى سترايك » وكانت مادلين تحول رأسها اذا ما نظر فلافيير اليها . ولكن فلافيير كان تعسا جدا فلم تأخذه بها شفقة .
وقالت :
ـ دعني ... أريد شراء اسبرين فان بي صداعا .
ـ اعترفي انك مادلين أولا .
هزت كتفيها واستأنفا طريقهما ، أحدهما الصق الآخر كما لو كانا عاشقين . ولكنه كان يمسك ذراعها في قوة كرجل الشرطة الذى يخشي أن يفر منه غريمه .
وعادا الى الفندق وسارا رأسا الى قاعة الطعام . لم يتمكن فلافيير من أن يرفع عينيه عن مادلين رآها ، تحت نور الثريا ، بشعرها المرفوع الى مؤخرة رأسها كما رآها لأول مرة في مسرح

ماريني . ومد يده وضغط على أصابعها وقال :

ـ ألا تريدين أن تقولى شيئا ؟

فأطرقت برأسها . كانت شاحبة شحوب الموتي . وأسرع رئيس الخدم اليها ، وبعد أن سألها عن أنواع الطعام قال :

ـ والشراب ؟

ـ زجاجة من النبيذ .

وأحس بأنه انتقل خارج الزمن كما لو كان وجود مادلين قد حرمه هو من الواقع والحقيقة والحياة . كان أحدهما فائضا عن الحاجة وكان ينظر اليها تارة ويقول « هذا محال » وينظر اليها تارة أخرى ويقول : « لا شك اني في منام » وكانت لا تأكل الا لماما . وأوشكت مرارا كثيرة على أن تنزلق الى هذا التأمل الذى رآها فلافيير تنزلق اليه مرارا ... وأفرغ الزجاجة في هدوء ومثابرة ... أحس بعداء مادلين يقف حائلا بينهما كما لو كان حاجزا باردا .

وقال :

ـ ليس لك حيلة يا مادلين . تكلمى .

ـ ونهضت واقفة فجأة فقال :

ـ سوف ألحق بك .

وذهبت لتأخذ المفتاح ، أما هو فتناول كأسا من الويسكى ثم أسرع نحو المصعد . وأغلق العامل الباب خلفهما وصعد بهما المصعد . وطوق فلافيير كتفي مادلين بذراعه ومال فوق أذنها كما لو كان يريد أن يطبع عليها قبلة وقال : ـ اعترفي يا حبيبتي .

فاعتمدت في بطء على حاجز المصعد الخشبي وتمتمت :

ـ نعم ... أنا مادلين .

- ٦ -

أدار فلافيير المفتاح في القفل في حركة آلية وراح ينقل قدميه وهو مذهول يكاد يصعق مما سمع على الرغم من أنه كان ينتظر منها هذا الأعتراف منذ أيام طويلة ولكن هل كان هذا أعترافا ؟.. انها تكلمت في أعياء شديد ولعلها أرادت أن ترضيه فحسب لتحصل على هدنة . وأتكأ على الباب وقال :

- كيف تريدين مني أن أصدقك ... ما أسهل أن تقولى هذا !

- هل أنت بحاجة الى أدلة ؟

- كلا .. ولكن ... لم يعد يدرى ... رباه . ما شد ما هو متعب :

وتوسلت اليه قائلة :

- أرجوك ... أطفيء النور .

انبعث ضوء الشارع من خلال دلفتي الشباك ورسم على السقف ظلالا أشبه بالقضبان ... كان القفص مغلقا . وتهالك فلافيير على حافة الفراش وقال :

- لماذا لم تذكرى لى الحقيقة في الحال ... مم كنت تخافين ؟

لم يعد يرى مادلين ، وانما كان يسمعها تتحرك بالقرب من باب دورة المياه .

- ردى على ... مم كنت تخافين ؟

وعندما لزمت الصمت عاد يقول :

- انك عرفتني بمجرد أن وقعت عيناك على في الوالدورف ، أليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ كان في مقدورك اذن أن تعتمدى على منذ تلك اللحظة ... لماذا تصرفت هذا التصرف الأخرق ؟

وجعل يضرب بقبضته المطبقة الغطاء فتهتز أسلاك الحشية ويصدر منها صوت كصوت الجيتار .

ـ كل هذه المهزلة !.. هل كانت جديرة بنا ؟... وهذا الخطاب ؟... أما كان يجدر بك أن تصارحيني بما وقع لك ؟

جلست بجواره وبحثت عن يده في الظلام وتمتمت :

ـ ولكني أردت ألا تعلم أبدا .. ألا تتأكد أبدا .

ولكني كنت أعلم دائما .

ـ اصغ الى .. دعني أوضح لك .. إن الأمر جد عسير.

كانت يدها ساخنة . ولم يتحرك فلافيير... كان متوترا ، شديد القلق . كيف لا وهو يوشك أن يعرف السر؟

وقالت مادلين :

ـ ان المرأة التي عرفتها في باريس ... تلك التي رأيتها في المسرح برفقة صديقك جيفين ... تلك التي تبعتها وانتشلتها من الماء ... هذه المرأة لم تمت أبدا ... أنا لم أمت أبدا ... هل تفهم ؟

وابتسم فلافيير وقال :

ـ طبعا ... أنت لم تموتي طبعا ... أصبحت رينيه ... انني فاهم تماما .

ـ كلا يا صديقي العزيز... كلا ... ليت الامر بهذه السهولة ... أنا لم أصبح رينيه ... لأنني كنت رينيه طوال الوقت ... أنني حقا رينيه سورانج ... أنا رينيه سورانج التي

أحببتها دائما .

ـ كيف هذا ؟

ـ أنك لم تعرف مادلين جيفين أبدا ... فأنا التي قمت بدورها ... أنني كنت شريكة جيفين ..... أغفر لى ... لو تعلم كم عانيت وقاسيت ؟

أمسك فلافيير بمعصم المرأة الشابة وقال :

ـ هل تريدين مني أن أعتقد أن الجثة التي رأيتها هناك ، في أسفل البرج ؟...

ـ نعم ، كانت جثة مدام جيفين وكان زوجها قد قتلها لساعته ... كانت مادلين جيفين ، وكانت ميتة . أما أنا فكنت حية أرزق .... هذه هى الحقيقة .

فقال فلافيير :

ـ هذا كذب ، ومهما يكن فان جيفين ليس موجودا ولا يمكنه أن يحتج ولهذا فانت تنتهزين الفرصة ... مسكين جيفين ... اذن فانت تريدين أن تقولى أنك كنت عشيقته وانكما دبرتما معا مقتل الزوجة الشرعية .. ولكن لماذا ؟

لانها هى التي كانت تملك الثروة ... وكنا نزمع الرحيل الى الخارج بعد ذلك .

ـ هذا حسن . ولماذا أتاني جيفين وسألني أن أراقب زوجته ؟

ـ أهدأ يا حبيبي .

ـ انني هادىء ... تكلمى ... أقسم لك أنني لم أكن في حياتي كلها بمثل هذا الهدوء ... هيا تكلمى .

ـ لم يكن ينبغى أن ترقي الشكوك اليه . فلم يكن هناك أى سبب يبرر انتحار زوجته ، وكان بحاجة الى شاهد يستطيع أن

يؤكد أن مدام جيفين كانت تتملكها أفكار غريبة وانها كانت موقنة بأنها سبق أن عاشت في وقت مضي وانها تنظر الى الموت كما لو كان العوبة لا أهمية لها .... شاهد لا يشك أحد في شهادته عندما يصرح بأنه كان موجودا ساعة انتحارها ... وكنت أنت محام ... ثم أنه كان يعرفك جيدا .. منذ الطفولة .. كان يعلم انك ستصدق قصته من الوهلة الأولى .

- اذن فقد كان يحسبني مغفلا أحمق ... أنه دبر أمره جيدا ... أنت أذن التي كنت معه في مسرح ماريني في تلك الليلة ، وأنت التي ذهبت الى مقبرة باسي ؟ وصورتك أنت التي كانت موضوعة فوق مكتب جيفين عندما ذهبت أنا لزيارته ؟

- نعم .

- وطبقا لأقوالك هذه فان بولين لاجرلاك لم يكن لها وجود طبعا .

- بل كانت موجودة فعلا .

- آه .. ها أنت لا تجرئين على انكار كل شيء . فتمتمت :

- ولكن ... ألا تفهم ؟

فصاح في حدة :

- بل أنا فاهم ... فاهم ... ولكني أفهم على الخصوص أن بولين لاجرلاك تضايقك ... اذ ليس من السهل أن تجدى لها مكانا في قصتك .

فهمست :

- ليت كل هذا كان قصة ... كانت بولين لاجرلاك أم جدة مادلين جيفين حقا . وهذا هو الذى أوحى بتلك الفكرة الى صديقك ... أعني جنون هذه الجدة الغريبة والذهاب الى المقبرة ثم

الى بيت شارع الاباء القديسين حيث قضت بولين حياتها ... والانتحار الكاذب بكوربيفوا بما أن بولين لاجرلاك قد ماتت غرقا .

ـ الانتحار الكاذب ؟

ـ نعم ، لاعداد الانتحار الآخر ... لو أنك لم تلق بنفسك في الماء لخرجت أنا بكل سهولة فانني أعرف السباحة .

دس فلافيير يديه في جيبه حتي لا يضرب كالوحش المجنون وزمجر :

ـ كان جيفين هذا داهية حقا ... اذن فقد دبر كل شيء ... وعندما عرض على ان أذهب الى بيته في ذلك اليوم كان يعلم من غير شك انني سأرفض .

ـ والدليل على هذا انك رفضت ... وقد منعتك أنا من الاتصال تليفونيا بشارع كليبر .

ـ اصمتي ... لنفرض ... ولكن البرج ... هل كان في مقدوره أن يعلم أننا سنذهب الى هناك ؟.. نعم ، سوف تقولين لى انك أنت التي كنت تمسكين بعجلة القيادة وانكما دبرتما كل شيء منذ وقت طويل واكتشفتما تلك القرية المهجورة وقررتما ساعة تنفيذ الجريمة بالتدقيق ... وانه لم يكن عليه بعد ذلك الا أن يعرض على زوجته القيام بنزهة صغيرة وانه كان يعلم أى ثوب سترتديه ... ولكن لا ... انني لا اصدقك .. هل تسمعينني ... انني لا أصدقك ... أن جيفين لم يكن مجرما .

فقالت :

ـ بلى ... أوه كانت هناك ظروف مخففة فقد كان تعسا في زواجه ... كانت مادلين مريضة حقا وقد ذهب بها الى أطباء

كثيرين ولكنهم لم يجدوا بها شيئا .

ـ طبعا . فان المرء اذا أراد وجد ما يشاء من الايضاحات .. البرج ... ما اسهل هذا !... ان جيفين هناك ، وهو ينتظرك بعد أن فرغ من قتل زوجته وشوهها وهو يعلم تماما انني لا استطيع أن أتبعك بسبب ما يعتريني من دوار ... وتلحقين به وتطلقين تلك الصيحة الطويلة المدوية ... فيترك الجثة .. وتراقبانني من عل وأنا أتأمل تلك المرأة الممددة ووجهى نحو الأرض ... تلك المرأة ذات الشعر المصبوغ بالحناء أنا أيضا أستطيع أن اختلق ما أشاء من إيضاحات وعندما ابتعد تهربان من الباب الآخر .

أخذ فلافيير يتنفس في مشقة كبيرة . وأحس بجفاف في حلقه وبالصور المختلفة تدور في رأسه فتشكل في أوضاع غريبة . وقال في صوت خافت :

ـ كان يجب أن أبلغ مركز الشرطة ... وما كان جيفين يشك في انني سأدلى بشهادتي ، فانني كنت قد أنقذتها منذ أيام من الغرق في كوربيفوا .. ولكني لم أفعل شيئا ... لم أبلغ رجال الشرطة .. لم أجد من نفسي الجرأة لكى . اعترف مرة أخرى بالجبن الذى استولى على وهذا مالم يتوقعه جيفين ... لقد توقع كل شيء الا صمتي ... صمت رجل سبق أن ترك زميلا له يموت .

ومع ذلك فهو قد نطق بالحقيقة ... وقد تذكر زيارته لشارع كليبر والرعب الذى استولى على جيفين الذى كان لا بد له من التزام الصمت هو الآخر ، ومكالمته التليفونية في صباح اليوم التالى ومحاولته اليائسة التي راحت عبثا ... لقد عثروا عليها وبدأ رجال البويس التحقيق . وكذبته الكبرى وهو يقول «كلا . لم تصب بأى تشويه» وكان لا بد له من أن يقول ذلك طبعا فهو يعرف أن

فلافيير لم يقترب من الجثة ولم يرها ... ولما لم يتقدم أحد للشهادة استمر رجال البوليس في تحرياتهم ودفعهم البحث والتقصي الى التدخل في حياة الزوجين ولم يلبث أن تكشف لهم سبب الجريمة ... المال .. ولم يكن جيفين يملك ما يثبت وجوده في مكان آخر غير مكان الجريمة لانه كان موجودا في القرية ، ثم أن الفلاحين اعترفوا بأنهم رأوا رجلا وامرأة في سيارة ولا ريب أن التحقيق أثبت أنها السيارة التالبوت ثم مات جيفين .

راحت رينيه تبكي في هدوء ورأسها فوق الوسادة . وأدرك فلافيير فجأة أنه في آخر المطاف وأنه رأى بعينين مفتوحتين كابوسا رهيبا ... هذه المرأة التي الى جواره هي رينيه اذن ... لعلها كانت تقيم في نفس البيت الذى كان جيفين يقيم فيه ، ولا ريب أن التعارف تم بينهما هناك وانها رضيت أن تعاونه في جريمته حبا له ... وبعد سنوات من ذلك ، رضيت على تقزز منها بالمقسوم ، رضيت بهذه المغامرة مع المحامي الحقير الذى عثرت عليه من جديد ... كلا ... كلا ... انها اختلقت كل هذه الأكاذيب لتبعده عنها لأنها لا تحبه ... ولأنها لم تحبه قط لا في ذلك الوقت ولا ...

وناداها قائلا :

ـ مادلين ....

فقالت :

ـ أنا لست مادلين .

وعندئذ جز على أسنانه وأمسكها من عنقها بيديه الاثنتين وطرحها وهو يقول : ـ

ـ انك تكذبين ... لم تكفي عن الكذب أبدا ... ولكن .. ألا

ترين أنني أحبك وانني أحببتك منذ البداية ... بسبب بولين وبسبب المقبرة وبسبب هيئتك الحالية حبا أشبه بأسطورة غريبة ... بينما في الناحية الأخرى ... لا أعرف ... ولا أريد أن أعرف ... ولكنني عندما ضممتك بين ذراعي وأحسست بأنك ستكونين المرأة الوحيدة في حياتي .... مادلين .... هذا الاحساس كان هو الاسطورة ... ونزهاتنا ... هل تذكرين ... الريف المزدهر بالزهور ... واللوفر ... والبلد المفقود مادلين ... أتوسل اليك ... أذكرى لى الحقيقة ....

لم تتحرك ... وفك فلافيير أصابعه في مشقة كبيرة ثم بحث عن زر الكهرباء وهو يرتجف وأضاء النور ، وما كاد يفعل حتي أطلق صيحة هائلة خرج نزلاء الفندق على إثرها من حجراتهم وأسرعوا نحوه .

كان فلافيير قد كف عن البكاء منذ وقت طويل وراح ينظر الى الفراش . ولو لم تكن الاصفاد بين يديه لاحتفظ بيديه متشابكتين .. وفرغ المفتش من قراءة خطاب البروفسور بالآر لزميله في نيس ثم قال : اذهبوا به .

وكانت الغرفة مزدحمة بالناس ولكن لم يكن يصدر منهم أى صوت وقال فلافيير :

- هل أستطيع أن أقبلها .

هز المفتش كتفيه فاقترب فلافيير. كانت الميتة تبدو نحيلة فوق الفراش وقد أرتسم على وجهها هدوء وسلام كبيرين . وانحني فلافيير ووضع شفتيه على الجبين الشاحب وتمتم :

- سأنتظرك .

- تمــت -


Bibliotheca Alexandrina
0223325

Tlx.54209 Miaint UN
جميع
حقوق الطبع
محفوظة